

الهوية الثقافية بين دينامية التحول وسؤال التربية على القيم:

الأطلس الكبير المغربي نموذجاً

د. عبد الجبار أنتغرين

باحث في البلاغة وتحليل الخطاب

كلية اللغة العربية - جامعة القاضي عياض

المملكة المغربية

الملخص:

في سياق التحولات التي يشهدها العالم، والجنوح نحو فرض نظام عالمي موحد على حساب انكماش الهويات الثقافية، تتعاضد رهانات الحفاظ على التنوع الثقافي، وصون الرأسمال الرمزي المحلي، فيغدو سؤال الهوية الثقافية والتربية على القيم سؤالاً ملحاً، يستدعي إجابات راهنية عن سبل استثمار الخصوصيات الثقافية اللغوية والقيمية والتاريخية، وإدماجها الفعلي في السياسات العمومية. من هذا المنطلق تسعى هذه المقالة إلى الكشف عن دينامية التحول القيمي في مجتمع الأطلس الكبير المغربي باعتباره فضاء ذا خصوصية ثقافية فريدة، ورافداً من روافد الهوية المغربية المتنوعة، وربطها بسؤال التربية على القيم. وهنا تبرز المؤسسة التعليمية باعتبارها فاعلاً مركزياً في أداء هذه الوظيفة؛ إذ يقع على عاتقها هندسة التنشئة الاجتماعية، وفق سياسة قائمة على الملاءمة بين إرث الخصوصية، والمتطلبات الكونية المشتركة.

عملنا في هذه المقالة، بعد التأطير النظري لموضوع القيم، على رصد المظاهر والتجليات السوسيوثقافية لمنظومة القيم بالأطلس الكبير، وعلى فحص حضور القيم المحلية في المرجعيات المؤطرة للمنظومة التربوية المغربية، وتنزيلها في أرض الواقع، مع تقديم مقترحات وتوصيات لتفعيل الخصوصيات المحلية في مجال التربية على القيم. معتمدين في ذلك منهجاً تحليلياً وصفيًا مدعوماً بآليات تحليل المضمون. وخلصت الدراسة إلى وجود مفارقة واضحة بين الخطاب التربوي النظري، وواقع الممارسة الفعلية بالمدرسة المغربية، على مستوى تفعيل القيم عبر الخصوصيات الثقافية المحلية. الأمر الذي يجعل التربية على القيم في المدرسة، محدودة الأثر في سلوك المتعلم. لذلك، فالمدرسة المغربية مدعوة، رغم المكاسب التي حققتها في مجال القيم، إلى مواكبة دينامية التحول القيمي، وبدل مزيد من الجهد لردم الهوة القائمة بين الخطاب النظري المؤطر لتصور بناء القيم، وبين واقع الممارسة الفعلية.

الكلمات المفتاحية: التربية على القيم، الهوية الثقافية، الأطلس الكبير، التحول القيمي، المدرسة المغربية، الثقافة الأمازيغية، الملاءمة التربوية.

Résumé :

Dans le contexte des mutations mondiales actuelles et de la tendance vers l'imposition d'un ordre global uniforme au détriment du repli des identités culturelles, les enjeux liés à la préservation de la diversité culturelle et à la sauvegarde du capital symbolique local s'intensifient. Dès lors, la question de l'identité culturelle et de l'éducation aux valeurs devient une urgence qui appelle des réponses immédiates sur les moyens d'investir les spécificités culturelles, linguistiques, axiologiques et historiques, afin de les intégrer efficacement dans les politiques publiques. C'est dans cette perspective que cet article vise à mettre en lumière la dynamique du changement des valeurs au sein de la société du Haut Atlas marocain, en tant qu'espace doté d'une spécificité culturelle unique et affluent majeur de l'identité marocaine plurielle, tout en la liant à la problématique de l'éducation aux valeurs. Ici, l'institution éducative émerge comme un acteur central dans l'accomplissement de cette fonction; il lui incombe d'orchestrer la socialisation selon une politique fondée sur l'adaptation entre le patrimoine de la spécificité, et les exigences universelles communes.

Dans cet article, et après avoir établi le cadrage théorique de la notion de valeur, nous nous sommes attachés à examiner les manifestations socio-culturelles du système de valeurs dans le Haut Atlas. De même, nous avons analysé la présence des valeurs locales dans les référentiels encadrant le système éducatif marocain ainsi que leur déploiement sur le terrain, tout en formulant des propositions et des recommandations pour opérationnaliser ces spécificités locales dans le domaine de l'éducation aux valeurs. Pour ce faire, nous avons adopté une approche descriptive et analytique, appuyée par les mécanismes de l'analyse de contenu. L'étude a ainsi révélé l'existence d'un paradoxe évident entre le discours pédagogique théorique et la réalité de la pratique effective au sein de l'école marocaine quant à l'activation des valeurs à travers les spécificités culturelles locales ; un constat qui explique l'impact limité de l'éducation aux valeurs scolaires sur le comportement de l'apprenant. Par conséquent, l'école marocaine est appelée, malgré les acquis réalisés, à accompagner la dynamique du changement axiologique et à déployer davantage d'efforts pour combler le fossé existant entre le discours théorique , qui cadre la conceptualisation de la construction des valeurs, et la réalité de la pratique sur le terrain.

مقدمة:

شكل موضوع القيم محط اهتمام كثير من المفكرين بمختلف مرجعياتهم ومشاربهم. إذ تتجاذبه مجالات مختلفة فلسفية واجتماعية ونفسية وتربوية... فهي التي توجه علاقة الإنسان بحيطه وبالعالم. فالقيم لها بعدان أحدهما كوني يحكم علاقة الإنسان بالعالم والوجود الإنساني العام، والآخر خصوصي يؤثر سلوك الفرد في بيئته المحلية، ويؤطر أحواله النفسية وعلاقته بمحيطه الاجتماعي الذي يحيط فيه، ويتفاعل ضمنه مع غيره.

والمجتمع المغربي له رصيد قيمى غني بفضل عمقه التاريخي، وغناه الاجتماعي وتنوعه الثقافي، أثر بشكل قوي في الحياة العامة والخاصة للمغاربة، وأطر علاقاتهم وممارساتهم واختياراتهم، وحتى أذواقهم الشخصية. ويعد الأطلس الكبير جزءاً لا يتجزأ من هذا المجتمع في عمقه التاريخي وغناه الحضاري، غير أنه أيضاً مجال ذو خصوصية ثقافية شكلت هويته المتفردة، والمتكاملة في الآن نفسه مع باقي المكونات الحضارية، والروافد الثقافية المغربية الغنية؛ فقد شكل في التحليل الجمعي، وفي التراث الحضاري والتاريخي للمغرب، فضاء جغرافيا وبشرياً فريداً، وقلعة حصينة لحفظ الذاكرة الوطنية، ومشتلاً حياً لإنتاج وتلاقح منظومة القيم الإنسانية المشتركة.

وفي سياق التحولات السريعة التي يشهدها العالم اليوم، والجنوح نحو فرض نظام عالمي موحد يستند إلى مبادئ العولمة الاقتصادية على حساب انكماش الهويات الثقافية، تتعاضد رهانات الحفاظ على التنوع الثقافي، وصون الرأسمال الرمزي المحلي وأنظمتها القيمية. ومن ثمّ يصبح كشف مظاهر هذا التحول وسياقاته، مدخلاً مهماً لفهم تحولات الهوية الثقافية للأطلس الكبير، ورصد درجات تطور القيم المشكلة لخصوصيته، بهدف التفكير في الصيغ الملائمة لضمان مسيرتها لتحولات العصر، واستمرار حضورها واشتغالها داخل الهوية الوطنية المغربية بروافدها المتنوعة وثقافتها الغنية. فيغدو سؤال الهوية الثقافية والتربية على القيم ملحاً، يستدعي إجابات راهنية واستشرافية عن سبل استثمار خصوصيات هذا المجال اللغوي والقيمية والتاريخية، وإدماجها الفعلي في السياسات العمومية، خاصة في حقل التربية، تفعيلاً لمدخل التربية على القيم في المناهج التربوية.

وتتأطر القضايا التي يطرحها هذا الموضوع، ضمن إشكالية يمكن صياغتها في السؤال الإشكالي الآتي: إلى أي حد تستطيع المدرسة المغربية مواكبة دينامية التحول القيمي، وتحقيق التوازن بين الخصوصية المحلية لمجتمع الأطلس الكبير والقيم الوطنية والإنسانية المشتركة في مجال التربية على القيم؟

وتنطلق هذه المقالة من ثلاث فرضيات رئيسية هي:

- الفرضية الأولى: يشهد النسق القيمي لمجتمع الأطلس الكبير تحولاً تدريجياً من قيم التضامن التقليدية، والروابط الأسرية الممتدة، نحو قيم أكثر فردانية وانفتاحاً، وذلك تحت تأثير عوامل التمدرس والهجرة وتطور وسائل التواصل؛
- الفرضية الثانية: توجد فجوة نسبية، وتفاوتات واضحة، في إدماج خصوصيات الثقافة المحلية (الأطلسية نموذجاً)، بين التصور النظري للتربية على القيم في المرجعيات المؤطرة لمنظومة التربية والتكوين من جهة، وبين الممارسة في واقع المدرسة المغربية من جهة ثانية؛
- الفرضية الثالثة: من شأن إدماج الموروث الثقافي الجهوي والمحلي في البرامج التربوية، وفي أنشطة الحياة المدرسية، تعزيز فاعلية التربية على القيم، والرفع من جاذبية المدرسة لدى المتعلم.

إن الإجابة عن الإشكالية أعلاه وفحص مضامين هذه الفرضيات، تقتضي بدايةً تأطير موضوع المقالة عبر تحديد مفاهيمه المركزية والكشف عن بعض مرجعياته النظرية، ثم رصد خصائص مجتمع الأطلس الكبير وتجليات قيمه الأصيلة وتحولاتها، وصولاً إلى فحص حضور القيم المحلية في المرجعيات المؤطرة للمنظومة التربوية المغربية، وتزليلها في أرض الواقع، وانتهاء بتقديم مقترحات وتوصيات لتفعيل الخصوصيات المحلية في مجال التربية على القيم. وتعتمد المقالة في مقاربتها لهذا الموضوع، المنهج الوصفي التحليلي عبر وصف البنية القيمية للمجتمع الأطلسي، وملاحظة دينامية تغيرها، ورصد وتحليل مضامين الوثائق التربوية لاستجلاء حضور القيم فيها، وآليات أجزائها في الكتب المدرسية.

أولاً: مدخل نظري:

يستدعي التفكير في المسألة الثقافية وبنيتها القيمية النازمة للمجتمعات الإنسانية، تحديد المفاهيم النظرية المؤسسة للنسق السوسيوثقافي وتحليلها وتفكيك عناصرها؛ فمفاهيم: "القيم" و"الهوية" و"الخصوصية" و"الكونية" محددات أساسية لفهم هذا النسق، تعمل داخل نسيج المجتمع، وتتأثر بالتحولات البنوية التي تطرأ عليه. وتزداد هذه المقاربة أهمية عندما يتعلق الأمر بمجال سوسيوثقافي خاص له عراقته التاريخية، وخصوصيته الطبيعية والأنثروبولوجية، كمجتمع الأطلس الكبير، الذي يمثل مختبراً حياً لرصد جدلية الثابت والمتحول في الهوية الثقافية المغربية بروافدها المتنوعة والمتكاملة.

إن فهم دينامية التحول القيمي في المجتمع، يستوجب أيضاً الكشف عن بعض المنطلقات الفلسفية والاجتماعية لمفهوم "القيمة"، باعتبارها الموجه الأساس للفعل الإنساني والضامن لتماسك المجتمعات. فالفلسفة هي المجال الأقدر على إبراز كونية القيم، وهي مجال التأمل وإعمال الفكر، بغاية إضاءة جوانب الوجود الإنساني في هذا الكون. وأما المجتمع فهو المجال الأكثر تجسيدا للخصوصية بمختلف تلويناته الإثنية واللغوية والتاريخية والجغرافية، وبما يحكمه من أعراف وعادات وتقاليد وطقوس.

إن بنية القيم ليست جامدة، فهي تتأرجح بين قطبين متباينين: قطب الخصوصية المحلية لحماية الذاكرة والهوية، وقطب الكونية الداعي إلى الانفتاح على الأفق الإنساني المستند إلى مبادئ المواطنة العالمية. وفي هذا السياق، تبرز المؤسسة التعليمية باعتبارها فاعلاً استراتيجياً في إدارة هذا التنافس القيمي؛ إذ يقع على عاتقها هندسة التنشئة الاجتماعية وفق سياسة قائمة على الملاءمة بين إرث الخصوصية، بقيمه المحلية اللغوية والثقافية، وبين المتطلبات الكونية المشتركة. والمدرسة المغربية مطالبة بالحرص على صياغة مناهج وبرامج تربوية شاملة، تجسد تعدد روافد الهوية الثقافية المغربية وتكاملها، وتُجلي الانفتاح الحضاري للمغرب إفريقيا وعربياً وعالمياً، مع تبني مقاربات بيداغوجية فعالة قادرة على تفعيل اختياراتها التربوية.

1- تحديدات مفهومية:

1-1- مفهوم القيمة:

يُعد مفهوم "القيمة" من المفاهيم المركزية المشتركة بين عدة حقول معرفية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية. الأمر الذي يمنح هذا المفهوم أبعاداً دلالية متعددة تتراوح بين ما هو مادي نفعي، وما هو معنوي رمزي. واشتق اللفظ في اللسان العربي من الفعل "قام"، "والقيمة: واحدة القيم، و(هي) ثَمَنُ الشَّيْءِ بالتَّوْجِيمِ. تَقُولُ: تَقَاوَمُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَإِذَا انْقَادَ الشَّيْءُ وَاسْتَمَرَّتْ طَرِيقَتُهُ فَقَدْ اسْتَقَامَ لَوَجْهِهِ".⁽¹⁾ فالقيمة في معناها اللغوي تحيل إلى قدر الشيء وثمرته، وتفيد أيضاً الاستقامة والاعتدال. وفي المعجم

1 ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، مادة (ق و م).

الفلسفي، تُطلق القيمة "على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته، لاعتبارات اقتصادية، أو سيكولوجية، أو اجتماعية، أو أخلاقية، أو جمالية... وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوباً ومرغوباً فيه عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص".⁽¹⁾

أما في علم الاجتماع فالقيم هي منظومة من المعايير والمبادئ والتمثيلات الجماعية التي تتوضع عليها جماعة بشرية معينة، في سياق تاريخي وجغرافي محدد. وتشكل هذه المنظومة المحرك الأساس، والموجه غير المرئي لسلوكيات الأفراد، واختياراتهم اليومية، وبها يتم التمييز بين المقبول والمرفوض، والمستحب والمستهجى داخل النسق الاجتماعي.⁽²⁾

وتُعرف القيم في الحقل التربوي بأنها مجموع المرامي والغايات البيداغوجية التي تستهدف صياغة الوعي الأخلاقي والسلوكي لدى المتعلم، وتوجيه اختياراته في وضعيات حياتية مختلفة. وتشكل التربية على القيم والتنشئة الاجتماعية أهم الوظائف التي تضطلع بها المدرسة عبر إدماج الغايات والأهداف ذات الصلة بالمبادئ والقيم، بمختلف أصنافها، في المناهج التربوية لتهذيب سلوك المتعلم، وتشكيل وعيه الفردي والجمعي، بما يضمن اندماجه في محيطه المحلي وتفاعله الإيجابي مع العالم.⁽³⁾

انطلاقاً من هذه التعريفات يمكن أن نخلص إلى ما يأتي:

- القيمة ليست كينونة ثابتة أو معزولة، وإنما هي طاقة دينامية تتجسد في مواقف الأفراد، وتستمد مشروعيتها من قدرتها على تحقيق التماسك والمتناغم داخل البنية الاجتماعية والتربوية؛
- كما أن القيم قد تكون كونية مطلقة، حين ترتبط بمقولات مطلقة كالخير والحق والجمال، فهي يمكن أن تكون أيضاً نسبية تختلف باختلاف المجتمعات الحاضنة لها؛
- القيم محملة بشحنات عاطفية وانفعالية تجعل الأفراد مستعدين للدفاع عنها وتوريثها؛
- القيم تصدر عن خلفيات مرجعية غير مرئية يتشربها الفرد عبر التنشئة الاجتماعية، ليقس بها صواب أو خطأ أفعاله وأفعال المحيطين به.

1-2- الهوية الثقافية:

"الهوية" من المفاهيم الإشكالية الأكثر إثارة للجدل في العلوم الاجتماعية، نظراً لغموضه وتعدد مستويات تحليله. عرّفها الجرجاني بكونها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق".⁽⁴⁾ وإذا كانت الهوية تحيل إلى الكينونة، وتعبر عن جوهر الذات، على اعتبار أن اللفظ مأخوذ من الضمير "هو"، فهي أيضاً سيروية تُصنع وتُعاد صياغتها باستمرار عبر التفاعل الاجتماعي والعلائقي مع الآخر. فهي كالبصمة عند الإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، وتتجلى معالمها كلما

- 1 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، د.ت. ج 2، ص 213.
- 2 ينظر: غي روشيه، مقدمة في علم الاجتماع العام: الفعل الاجتماعي، ترج: مصطفى دملج، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2002، ص 74-76.
- 3 ينظر: وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الرباط، المملكة المغربية، 2000، القسم الأول: المرتكزات الثابتة والغايات الكبرى. وينظر أيضاً: المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء (رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030)، ص 55.
- 4 الشريف الجرجاني علي بن محمد، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت، ص 216.

أزيلت عنها عوارض الطمس، دون أن تتخلى عن مكانها لغيرها. ومن ثم فإن الهوية تعني كيان أمة أو جماعة أو طائفة تنطلق منها نحو سموها العقدي والقيمي والأخلاقي، وينشأ عليها أجيالها، وتبنى عليها حضارتها.⁽¹⁾

ويعد مفهوم "الثقافة" بدوره من أكثر المفاهيم اتساعاً وشمولية والتباساً في العلوم الإنسانية؛ إذ لا ينحصر دلاليها في الإنتاج الفكري والنخبوي، وإنما يمتد ليشمل كل ما ينتجه الإنسان ويفكر فيه ويمارسه داخل جماعة معينة. والثقافة من "تَقَفَ الشَّيْءُ ثَقُفًا وَثَقَافًا وَثُقُوفَةً: حَذَقَهُ. وَرَجُلٌ تَقَفٌ وَثَقُفٌ: حَازِقٌ فَهْمٌ"⁽²⁾ وثقف الرجل ثقافة إذا صار حاذقاً، والرجل المثقف: الحاذق الفهم، وغلام ثقف: أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.⁽³⁾ والثقافة في معناها العام "هي مجموع السمات الروحية والفكرية والعاطفية والمادية التي تميز مجتمعاً ما أو مجموعة اجتماعية. وهي تضم، بالإضافة إلى الفنون والآداب، أنماط السلوك وحقوق الإنسان ومنظومات القيم والتقاليد والمعتقدات".⁽⁴⁾

فالثقافة هي بمثابة "الكل المركب" الذي يمنح المجتمع طابعه الخاص وأسلوب عيشه المميز. وهي ذلك الكل المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات التي تُحتفظ لجماعة بشرية، والتي تمنح المجتمع طابعه الخاص وأسلوب عيشه المميز، وتشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. إنها المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل.⁽⁵⁾

يظهر جلياً أن مفهوم الثقافة يركز على مقومات الهوية؛ فالقيم والعادات والتقاليد والمعتقدات وأشكال التعبير الخاصة بجماعة محدّدة، كلها من الوسائل التي تؤكد بها الجماعة البشرية أو المجتمع وجوده. لذلك فالهوية الثقافية للجماعة تتأسس على ركيزتين أساسيتين: الوعي بالذات، والحدود الرمزية والسمات الخاصة التي تميزها عن الجماعات الأخرى. لكن من منظور ديناميكي يتجاوز النظرة السكونية؛ فالهوية الثقافية من هذا المنظور ليست أمراً مكتمل الإنجاز، وإنما هي حالة تراكمية تتكشف داخلها العادات والتقاليد واللغة والتاريخ. ومسار سيروية الهوية الثقافية يتطور إما في اتجاه الانكماش أو في اتجاه التوسع، وهي تبني بتجارب أهلها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلعاتهم، وباحتكاكها سلباً أو إيجاباً مع الثقافات الأخرى.

يُحيل مفهوم الهوية الثقافية إذن، إلى مجموع المقومات والعناصر الثقافية، التي تسمح بالتعرف على الانتماء الثقافي لشخص ما، أو لمجموعة بشرية معينة. كما يمكن أن يُحيل عموماً إلى الوعي، الضمني أو الصريح، بالانتماء إلى جماعة بشرية معينة تعيش في فضاء جغرافي محدد، ولها تراث ثقافي متميز، يشمل تاريخاً مشتركاً، ولغة، وعادات وتقاليد، وتطلعات مستقبلية.⁽⁶⁾

1 ينظر: الجابري محمد عابد، العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2009، ص 28.

ينظر أيضاً: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص 529.

2 لسان العرب، مرجع سابق، مادة (ث ق ف).

3 ينظر: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج1، ص 378.

4 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مراجعة الخطة الشاملة للثقافة العربية وتحدياتها، 2021، ص 29.

5 ينظر: الجابري محمد عابد، المسألة الثقافية في الوطن العربي (سلسلة الثقافة القومية، عدد 25)، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص 213.

ينظر أيضاً: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص 529.

6 ينظر: الدواي عبد الرزاق، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات: حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 154.

وتتجسد الهوية الثقافية في دوائر أو مستويات مختلفة، أولها: دائرة الفرد داخل الجماعة، وتعبّر عن تمايز الأنا الفردية داخل الجماعة نفسها، عن الآخر كالعائلة والطائفة والديانة والتنظيم السياسي... ثانيها: الجماعات داخل الدولة أو الأمة؛ فلكل جماعة ما يميزها عن غيرها من عادات وتقاليده وطقوس وتاريخ، داخل الهوية الثقافية الوطنية المشتركة. وثالثها: دائرة الدولة أو الأمة الواحدة داخل النطاق العالمي أو الكوني الأوسع. وهو المجال الذي تتجلى فيه الخصوصية، ويظهر فيه التعدد والتنوع والاختلاف بشكل أكبر ضمن إطار الثقافة الإنسانية العالمية الكونية.

1-3- الخصوصية والكونية:

تُمثل ثنائية "الخصوصية والكونية" أحد القضايا الأساسية في الفكر الفلسفي والسوسيولوجي المعاصر؛ إذ تحيل إلى الصراع المستمر بين نزعتين: نزعة حماية "الخصوصية" باعتبارها حق الجماعات المحلية في صون تميزها الثقافي ولغتها وقيمها، ونزعة الانخراط في "الكونية" بما هي منظومة من المبادئ الإنسانية المشتركة كحقوق الإنسان والديمقراطية والحرية، التي تتجاوز الحدود الجغرافية والإثنية. والخصوصية تحمل معنى الهوية الثقافية، باعتبارها منظومة القيم والعادات والتقاليد واللغة والمعتقدات والتاريخ المشترك لمجموعة بشرية. وهذه الخصوصية تخضع بطبيعتها إلى عدد من المكونات الموضوعية التي تشكلها وتجسد مضمونها وبنيتها، ومنها: **المكون الفكري**، وهو مكون جوهري يمثل نتاج الجماعة البشرية، الفلسفي والايديولوجي والمعرفي، في حقب زمنية تضفي طابع النسبية على هذا الناتج. **والمكون الديني** الذي يطبع الخصوصية من خلال التوجهات المتصلة بالعقيدة والعبادات وضوابط المعاملات الاجتماعية والنظرة إلى الحياة. ثم **المكون التراثي** الذي يجسد الوعي بالتاريخ؛ فأحداث الماضي ووقائعه وسجلاته ومآثره، وحتى آلامه ومآسيه، تعمل على تكوين الوجدان والشعور التاريخي الخاص. يضاف إلى ذلك **المكون البيئي**، في بعده الجغرافي والمناخي، والذي يشكل مجال تفاعلات الإنسان مع المكان والوقائع الطبيعية، بما تحتويه من عوامل تنعكس على الطابع والأمزجة والعادات والسلوكيات.⁽¹⁾

أما الكونية فتنتقل على العكس من ذلك، من مبدأ الوحدة والتماثل، ومحو الفوارق بين الجماعات البشرية، في أفق تشكيل الهوية الكونية الإنسانية الجامعة التي تقر بوحدة الجنس البشري، رغم تباين نطاقاته الزمنية والمكانية والإثنية، والتي تتخذ الإنسان منطلقاً وغايتها الكبرى. وقد نص مفكرو عصر الأنوار على هذه الميزة الإنسانية في الوعي والسلوك، حيث نجد (إيمانويل كانط) يصرح: "بأنه في الوضع الراهن للتربية لا يحقق الإنسان بشكل كامل الغاية النهائية لوجوده. وبالفعل نظراً لوجود تنوع كبير في حياة البشر، لا يمكن أن يوجد بينهم تشابه إلا إذا خضع سلوكهم لمبادئ موحدة إلى درجة تصبح معها هذه المبادئ طبيعية ثابتة لديهم. غير أنه بإمكاننا أن نعمل على التخطيط لتربية أكثر تناسبا مع غايات (الإنسان) وأن ننقل بذلك للأجيال الآتية تعليمات يمكنها بدورها تحقيقها في حياتها المقبلة".⁽²⁾

ويجد هذا البعد الكوني تجلياته في بعض الوثائق الصادرة عن مؤسسات دولية كوثيقة "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الذي صادقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1948، ووثيقة "إعلان المبادئ المتعلقة بالتسامح" الذي أعلنه ووقعه المؤتمر العام لليونسكو في نونبر 1995. فقد كرست الوثيقتان البعد الكوني لثقافة حقوق الإنسان وضرورة إيلائه مكانة مركزية في المنظومة الأخلاقية والحقوقية والقانونية العالمية.

1 ينظر: القريشي علي، التربية بين الخصوصية والعالمية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2017، ص 12.

2 منصف عبد الحق، الحداثة الأنوارية في التربية، عالم التربية، عدد 13، ص 52.

غير أن هذه العالمية لا يجب أن تطغى على الخصوصية المحلية فتمحوها، كما أن الهويات الخاصة لا ينبغي أن تتجاوز حدودها فتضمحل في مسار بحثها عن العالمية. في هذا الصدد يقول (جان بودريار): "كل ثقافة تصبح كلفة، تفقد من خصوصيتها وتموت. هكذا حصل للثقافات التي دمرناها حين استوعبناها بالقوة، ولكن هذا ما سيحصل كذلك لثقافتنا في تَوَقُّعها إلى الكونية. الفرق هو أن باقي الثقافات ماتت بفعل خصوصيتها، وهو موت جميل، بينما نحن نموت لانعدام أية خصوصية، وبسبب قضائنا على كل قيمنا، وهو موت سيء".⁽¹⁾

ومهما يكن فإن العلاقة التي ينبغي أن تجمع بين الخصوصية والكونية هي علاقة التكامل، لا علاقة التقاطب القائمة على الصراع بين الهوية والمشارك الإنساني. ومن هذا المنطلق "تبرز إذن الحاجة الملحة إلى تمثّل مقولة الهوية خارج منطق الخصوصية المغرقة في الانغلاق والتفرد، اعتباراً لكونها ليست إطاراً جاهزاً للانتماء والانغلاق في الذاتية المنكفئة على نفسها، بل إن الهوية في جوهرها أفق مفتوح للتجدد والإبداع من خلال التفاعل الإيجابي مع الآخر ضمن منظور الكونية الإنسانية".⁽²⁾ فالهوية الثقافية هي منبع الاعتزاز بالانتماء إلى الأرض والتاريخ، وإلى الوطن الذي يحمي الكرامة ويوفر الإحساس بالأمن، ويضمن حق التمتع بالعدالة الاجتماعية، والحقوق المتعارف عليها عالمياً، ويتيح إمكان الاستفادة من المكتسبات الإنسانية العالمية، في ظل الانفتاح على الثقافات المغيرة. وبالمقابل لا ينبغي أن يُتخذ شعار الحفاظ على الهوية الثقافية مطية للتقوقع وغلّق الأبواب والنوافذ خوفاً عليها، لأن ذلك قد يكون من أنجع السبل لكي تُصاب بالجمود والعقم.⁽³⁾

إن النظرة إلى ثنائية "الكونية والخصوصية" ينبغي إذن، في تقديرنا، أن تتجاوز الصراع التقليدي بين المفهومين؛ ذلك أن الكونية والخصوصية ليستا بُنْيَتَيْنِ متنافرتين بالضرورة، فكل ما هو إنساني ينطوي، في الوقت نفسه، على خصوصية ثقافية، وعلى أصل كوني مشترك. وتبعاً لذلك لا تكتسب الثقافات المحلية بعدها الإنساني إلا إذا انفتحت على المبادئ الكونية، كما أن "الكوني" لا يعدو أن يكون قالباً جافاً وفارغاً ما لم يحترم تنوع الهويات الثقافية المحلية ويستوعبها.

2- القيم في الفلسفة: ملامح التصور ونماذج التصنيف.

إن الفلسفة، كما يقول (لويس لافيل)، ليست قومية ولا دولية، بل هي كلية.⁽⁴⁾ ومعنى ذلك أن معالجتها للقضايا التي تثيرها تتسم بالشمولية والتجريد، لكنها لا تلغي في الآن نفسه البعد الزمني الذي يحكم تطور الحياة البشرية، كما لا تلغي الانتماء الفكري والمذهبي للفيلسوف في تناوله لتلك القضايا، كما هو الشأن بالنسبة لمفهوم القيم وتصنيفها أو تراتبيتها. وعلى هذا الأساس آثرنا أن نلمح بإيجاز إلى ومضات من آراء الفلاسفة في القيم لاستجلاء تصوراتهم المتباينة أو المتكاملة إزاءها، وعرض أهم تصنيفاتهم للقيم.

- 1 جان بودريار، من الكوني إلى المفرد: عنف العالمية. ضمن: القيم إلى أين؟ (كتاب جماعي بإدارة جيروم بندي)، منشورات اليونسكو، ترجمة: زهيدة درويش جبور وجان جبور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2005، ص 51.
- 2 مراجعة الخطة الشاملة للثقافة العربية وتحدياتها، مرجع سابق، ص 25.
- 3 ينظر: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، مرجع سابق، ص 154.
- 4 العوا عادل، العمدة في الفلسفة. دار طلاس، دمشق، سوريا، ط 1، 1986، ص 113.

2-1- تطور مفهوم القيم في الفلسفة:

- القيم في الفلسفة القديمة:

إن اهتمام الفلسفة القديمة بالقيم يتصل بالبحث عن تصور لمثل أعلى للإنسان. فوجد الفلاسفة أن هذا المثل الأعلى لا ينفصل عن علاقة العقل الإنساني بالطبيعة. فالإنسان يحيا وفق قوانين الطبيعة، وعليه أن يعترف بنظامها ويحرص على رعايته وتخليصه من الاضطراب الذي قد ينشأ عن جموح أهوائه. لقد آمن السفسطائيون، وعلى رأسهم (بروتاغوراس) أن الإحساس هو الطريقة الوحيدة والمثلى للمعرفة، وأن أحكام الإنسان ليست شيئاً آخر غير صياغة أحاسيسه. لذلك فكل شيء في نظرهم يتبدل ولا يبقى على حاله دائماً. وينتج عن ذلك أن الحقيقة ليست مطلقة، وأن ما يدعوه الإنسان حقاً ليس سوى ما يبدو له أنه كذلك في سياق ما. إن آراء السفسطائيين هذه تنطلق من المبدأ القائل "إن الإنسان مقياس الأشياء كلها"، فهو مقياس وجود ما يوجد، ومقياس لا وجود ما لا يوجد.⁽¹⁾ تبعاً لذلك، لا وجود لقيم مطلقة، فالإنسان مقياس ذاته، وسيطرته على نفسه يقتضي البحث عن توازنه وفق السياقات التي يحيا فيها.

وعلى النقيض من ذلك، يقف (أفلاطون) معارضا للفكر السفسطائي، إذ يرى أن سبب الوجود هو الخير، فجميع الموجودات المعقولة تستمد وجودها وما هيتهما من الخير. أي أن القيمة هي غاية الوجود، وأن القيم تنتظم تحت ثلاث أمثل هو: الحق المطلق والجمال المطلق والخير المطلق. ولهذا الثلاث المطلق ظلال هي الكائنات ذات المعايير المتفاضلة من حيث إسهامها بشكل أكثر أو أقل في ذلك الثلاث. إن تصور أفلاطون هذا يبني على مبدأ "القيمة مقياس الأشياء كلها"، وهذا ما يفسر الصراع القوي الذي نشب بين (أفلاطون) و(بروتاغوراس) على وجه الخصوص.

وقد انتقد (أرسطو) نظرية (أفلاطون) المثالية، واعتبر أنها غير قابلة للبرهنة، معتمداً مبادئ علاقة تسلسلية بين الصورة والمادة، أو ما سماه الوجود بالقوة والوجود بالفعل. ورأى أن المادة تتجذب نحو الصورة وتتطلع إليها. وهكذا حاول أن يثبت أن القيمة يمكن أن تتجسد أيضاً في الواقع، وأنها يمكن أن ترتقي من فاعلية تمتزج بالمادة إلى فاعلية الروح المحضة أو الفضيلة العقلية التي قوامها التأمل، وهو الخير الأسمى الذي يسمح للنفس البشرية بأن تتحد بالعقل الإلهي. وفي هذا المسار تتجسد الفضائل الإنسانية التي تمثل حال التوسط بين طرفين مردولين.⁽²⁾

- القيم في فلسفة العصور الوسطى:

تأثرت فلسفة القيم في العصور الوسطى بالفكر المسيحي، وباتت القيم كلها قيماً دينية، وانتهت إلى إخضاع مشكلة الوجود لمشكلة القيمة. ففلسفة العصور الوسطى عالجوا القيم من خلال ربطها بالخير المطلق أو الكمال، كما هو الحال لدى القديس (أوغسطين) والقديس (توما الإكويني). فذهب القديس (أوغسطين) إلى أن الله وحده ثابت كامل، وأن الإنسان الذي يطلب السعادة إنما يطلب الله. ووجد أن الخير بالمعنى الأفلاطوني يتحول إلى معنى الله، وهو ما يميز ربط الإنسان بالمطلق برباط المحبة. فالله هو القيمة العليا، ومبدأ جميع القيم. ومنه يلقي كل كائن في هذا العالم وجوده الخاص. أما القديس (توما الإكويني) فيرى أن المعرفة الإنسانية تبدأ من المرئي وترتقي بالعقل إلى اللامرئي، وأن القيم تتجسد في الواقع. ولذلك فالمعرفة الإيمانية لا تحتل الصدارة في منظوره؛

1 العمدة في فلسفة القيم، مرجع سابق، ص 57.

2 المرجع نفسه، ص 70.

لأن الحقيقة قد وجدت، ولم يبق ثمّة من سبيل إلا سبيل إيضاحها على ضوء العقل الذي هو سابق على المحبة. فهي ليست سوى الإرادة التي ينيرها نور العقل.⁽¹⁾

فالقديس (أوغسطين) ينطلق من اعتبار القيمة إشراقة تهبط من الله إلى الإنسان الذي ينبغي أن يتعرض لهذه الإشراقة، بينما يرى القديس (توما) أن القيمة تنطلق من الإرادة المستنيرة بالعقل وترقى نحو الله، فيتقيد بذلك الخير الإنساني بالخير الإلهي الأسمى.

– القيم في فلسفة العصر الحديث:

ثار فلاسفة العصر الحديث على فكر العصر الوسيط، وفي مقدمة هؤلاء (ديكارت) الذي ذهب إلى أن القيمة القصوى تتصل بالمعرفة التي تسوغ ارتباطها بفكرة الإله الكامل، وأن الإنسان بوصفه روحاً متحدة بالجسد، يخضع للأهواء والأحاسيس. وهي صادرة عن الجسد، لكنه يظل سيد حركاته الجسدية في حدود معينة. وقد ميز بين ستة أنواع من الأهواء: الرغبة واللذة والألم والدهشة والحب والكراهة. واعتبر أن هذه الأهواء ينبغي أن تخضع للعقل (الأهواء المشروعة).⁽²⁾

غير أن واضع الحجر الأساس في فلسفة القيم في العصر الحديث، بإجماع المفكرين هو (كانط) الذي أعلى من شأن العقل، واعتبر أن الطبيعة بكل عناصرها ينبغي أن تخضع له وتسايه. والعقل عنده عقلان: أحدهما نظري خالص أو محض بريء من شوب التجربة، والآخر عملي يتناول الجانب العملي من الوجود، وتتجلى وظيفته في توجيه أعمال الإنسان، أي السلوك والأخلاق. ويرجح كانط العقل العملي على العقل النظري، ويعتبره كاشف القيم لدى الإنسان. والقيم الإنسانية عنده خاضعة كلها لقيمة "الإنسانية" باعتبارها غاية. فالكائن العاقل لا سعر له، وقيّمته في نفسه. وبعبارة أخرى فإن للكائن العاقل كرامة، وتلك الكرامة متساوية لدى الجميع.⁽³⁾

ومن فلاسفة العصر الحديث أيضاً، نجد علم الاجتماع (دوركهايم) الذي سعى بعد أوغست كونت إلى بناء علم الاجتماع على أساس وضعي: أي وحدة التصور الجمعي. فهو يرى أن القيم تنشأ عن التقريب بين أنظار الناس، ذلك أن المجتمع في نظره هو أصل القيم وخالق المثل العليا. إذ من شأن التصورات المشتركة أن تؤلف وجدانا اجتماعيا حقيقيا ينساب داخل الضمائر الفردية، فيفرض على المرء ما يجب أن يفكر فيه، أو ما ينبغي أن يصنعه ويحققه.⁽⁴⁾

أما (سارتر) فهو من الفلاسفة الوجوديين الذي تأثر بـ(هيدجر)، والذي تجاوز مذهب (بروتاغوراس) القائل بأن الإنسان مقياس الأشياء كلها، ليرى أن الإنسان هو الانبثاق "للكائن لذاته"، أي: الكائن الذي هو "عوز ذاته"، وأن "العوز" هو عين الإنسان. وتقوم الفلسفة الوجودية عند (سارتر) على النظر إلى الإنسان بوصفه فاعلاً حراً. لذلك يرى أن ينبوع القيمة الوحيد هو الوجود البشري، وأن القيمة مرتبطة بالشعور والحرية. فالإنسان يبدع القيم، وهو محكوم عليه بإبداع وجوده إبداعاً متجدداً. وباختصار فالإنسان يبيّن قيمه إذ يبيّن ذاته بالعمل.⁽⁵⁾

1 المرجع نفسه، ص 77.

2 العمدة في فلسفة القيم، مرجع سابق، ص 84.

3 المرجع نفسه، ص 94.

4 المرجع نفسه، ص 194 وما بعدها.

5 المرجع نفسه، ص 225 وما بعدها.

وخلاصة القول أن فلاسفة العصر الحديث بمختلف مذاهبهم ثاروا على فكر العصور الوسطى، وحاولوا ربط القيم بالمعرفة العلمية، وجعلوها ماثلة في ممارسة السيطرة على الواقع والطبيعة.

- القيم في الفلسفة الإسلامية (نموذج الغزالي).

إذا انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية، سنلاحظ ملامح التصور الفلسفي القديم للقيم جليلة، لدى كثير من الفلاسفة المسلمين، غير أنهم يخضعونها لما تفرضه مبادئ وأسس الثقافة الإسلامية. ومن ذلك ما نلمحه عند أبي حامد الغزالي في مؤلفه "إحياء علوم الدين"، وتحديدًا في كتاب "رياضة النفس"؛ إذ يرى أن النفس البشرية خلقت وخلقت، فالإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر، وروح ونفس مدركين بالبصيرة، أي من صورة ظاهرة وأخرى باطنة. والنفس الباطنة أعظم قدرا من الجسد.

ومنظومة القيم والأخلاق على المستوى الشخصي، عبارة عن هيئة تصدر عنها الأفعال. ولهذه الهيئة أربعة قوى هي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل. ومن اعتدال هذه القوى تصدر أمهات الأخلاق، وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. ويحدد مقصوده من هذه الأخلاق بقوله: "ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالعدل: حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة... ونعني بالشجاعة: كون قوة الغضب منقادًا للعقل في إقدامها وإجحامها. ونعني بالعفة: تأدب قوة الشهوة بتأدب العقل والشرع".⁽¹⁾

وهذه الأصول عند الغزالي هي الأخلاق الفاضلة، وهي تشكل حالة توسط بين إفراط وتفریط في أربعة أنساق قيمية، ذلك أن الحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان. ومثال ذلك: الشجاعة، فهي قيمة محمودة، وهي وسط بين التهور والجبن، وكلاهما طرف مردول. وقد حدد الغزالي أحوال التوسط والتفریط والإفراط لكل قوة من قوى النفس لا يتسع المقام لبسطها.

2-2- نماذج تصنيف القيم:

من القضايا التي تناولها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية، على اختلاف مشاربهم، قضية تصنيف القيم. وتسمح عمليات التصنيف هذه، إلى جانب تمثل مكونات المفهوم وتفكيك عناصره، بفهم تراتبيتها ووظيفتها داخل النسق السوسيوثقافي، وكيفية تصنيفها في الحقل التربوي وفي باقي مجالات الاجتماع البشري. ولن يسعنا المقام هنا لإبراز الأسس والمنطلقات التي اعتمدها الفلاسفة في تصنيفهم للقيم، لذلك سنكتفي بإيراد نماذج من تلك التصنيفات:⁽²⁾

- التصنيف التصاعدي:

ويضم ثلاثة أنظمة من القيم في ترتيب تصاعدي من الأدنى إلى الأعلى، أي من الوضع الغريزي إلى أشكال الحياة الفكرية والروحية:

✓ **القيم الحيوية:** وتمثل البنية الدنيا في كل واقع حي. وتشمل ثلاث مجالات أساسية: غرائز الحياة، ومن أبعادها: الاحتفاظ بالذات وإنقاذ الحياة (مشاعر الخوف والقلق والملل...)، والطعام والسكنى واللباس (الحاجة والراحة...)، وإثبات القوة والسيطرة (العنف المفروض أو المحتمل). وغرائز التناسل، ومن أبعادها: الغريزة الجنسية وغريزة الأمومة والأبوة، ثم غريزة الاجتماع، وتشتمل على بعدين: بذل الذات مجانا، والتعبير المتحرر عن الفردية؛

1 الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين: كتاب رياضة النفس، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 935 وما بعدها.

2 العمدة في فلسفة القيم، مرجع سابق، ص 426 وما بعدها.

✓ **القيم الفكرية:** وهي نظام "الإنسان" فهي تقابل المعرفة الصريحة. وتتضمن ثلاث مجالات قيمة: قيم الفردية أو قيم "الأنا"، ومن أبعادها: بعد إثبات الذات، وبعد إرادة القوة، وبعد التقنية والمعرفة (السيطرة على الطبيعة). وقيم التعاطف، ومن أبعادها: بعد الحب، وبعد الصداقة، وبعد التضامن. ثم قيم اللعب، وتشمل بعد اللهو، وبعد الرياضة، وبعد الفنون.

✓ **القيم الروحية:** وهي النظام الرفيع الذي ينجم عن تدخل الضمير أو الوجدان الأخلاقي حتى يحقق الشخص رسالته، ويضطلع بمسؤوليته للارتقاء بالواقع، والفوز بالحياة الروحية.

- تصنيف أوير:

يرى عالم الاجتماع (رينيه أوير) أنه من الممكن تصنيف القيم اعتماداً على الوظائف الاجتماعية. وهذه الوظائف في نظره تنظم في زمرتين:

✓ **زمرة الوظائف الاجتماعية المشخصة،** وتقابلها القيم المادية. وتشتمل على خمسة أنواع: الوظائف العضوية، وتقابلها القيم الحيوية. والوظائف الحسية، وتقابلها القيم الخاصة بالذات. ووظائف الكسب، وتقابلها القيم الاقتصادية. ووظائف الإنتاج، وتقابلها القيم التقنية. ثم وظائف التنظيم، وتقابلها القيم السياسية.

✓ **زمرة الوظائف الاجتماعية المجردة،** وتقابلها القيم الثقافية. وتشتمل أيضاً على خمسة أنواع: وظائف المعرفة، وتقابلها قيم الحقيقة. ووظائف الأخلاق، وتقابلها قيم الخير. والوظائف الجمالية، وتقابلها قيم الفن. ووظائف المحبة، وتقابلها قيم الحب. ثم وظائف التركيب الكلي، وتقابلها القيم المتصلة بالدين والفلسفة.

- تصنيف شلر:

حدد (ماكس شلر) أربعة مستويات من القيم:

✓ **المستوى الأدنى:** مستوى قيم الملائم والمنافي، وهي قيم الطبيعة الحسية. وتختلف باختلاف الأفراد.

✓ **مستوى القيم الحيوية:** وتشمل الصحة والمرض، والراحة والتعب، والحياة والموت...

✓ **القيم الروحية:** وهي قيم مستقلة عن الجسد، وتشتمل على قيم الحقيقي والجميل والعادل. ويمكن أن يضحى بالقيم الحيوية في سبيل القيم الروحية.

✓ **مستوى القيم الدينية:** وقوامها المقدس، وموضوعها المطلق، تحدث في نفس الإنسان مشاعر الإيمان والعبادة. وهي تهيمن على سائر القيم الأخرى.

- تصنيف لافيل:

ينطلق عالم الاجتماع (لويس لافيل) من ارتباط القيم بوظائف الشعور، فكل قيمة في نظره تعبر في كل وظيفة عن ارتباط الذات بالشروط الموضوعية. أي أنه يصنف القيم إلى ثلاثة أزواج بالنظر إلى علاقة الإنسان بالعالم على النحو التالي:

✓ **القيم الاقتصادية والقيم الانفعالية:** إذا نظرنا إلى الإنسان في العالم؛

✓ **القيم العقلية والقيم الجمالية:** إذا نظرنا إلى الإنسان أمام العالم؛

✓ **القيم الأخلاقية والقيم الدينية أو الروحية:** إذا نظرنا إلى الإنسان فوق العالم.

ونستخلص من خلال ما تقدم أن تصنيف القيم يختلف من مفكر إلى آخر وباختلاف المقاييس والمعايير المعتمدة في ذلك.⁽¹⁾ كما يلاحظ أن جل هذه التصنيفات تعلي من شأن القيم الأخلاقية والدينية وتجعلها في أعلى مستويات التصنيف، وتجعل بالمقابل، القيم المادية والحيوية في المستوى الأدنى.

وعموماً، يمكن حصر أبرز النماذج التصنيفية المعتمدة في الأدبيات السوسيولوجية والتربوية في الأصناف الكبرى الآتية:

✓ **القيم الروحية والدينية:** وتضم المبادئ المتعلقة بالمقدس والعقيدة، وتشكل النواة الصلبة للضمير الجمعي. وتتميز هذه القيم بثباتها وقدرتها على منح المعنى للوجود وضبط التماسك الاجتماعي، وهي ركيزة أساسية في أي مجتمع؛

✓ **القيم الأخلاقية:** وتحيل إلى معايير الخير والشر والعدالة والصدق والأمانة... وهي القيم الموجهة للسلوك الفردي والجماعي بشكل مباشر، وتشكل جوهر "المكون القيمي" في المجتمع؛

✓ **القيم الجماعية:** وتشمل قيم التعاون والتكافل والتواصل... وتؤمن هذه القيم تماسك روابط المجتمع أو الجماعة وحماية بنياتها الثقافية ومقومات العيش المشترك داخلها؛

✓ **القيم النفعية:** وترتبط بالغايات المادية: الإنتاجية والفعالية، وتقدير العمل والمصلحة؛

✓ **القيم الحبوية:** وهي القيم المرتبطة بغريزة البقاء واستمرار النوع البشري، وتتجسد في تلبية الحاجات الأساسية كالتناسل، والتغذية، والمسكن.

3- القيم في المجتمع: الخصوصية الثقافية والقيم المركزية.

ينظر إلى القيم في المجال السوسيولوجي باعتبارها منظومة بنيوية تعكس الضمير الجمعي، والشخصية الأساسية لكل جماعة بشرية؛ فالقيم والمجتمع بمثابة وجهين لعملة واحدة، إذ يستحيل بناء نسق اجتماعي متماسك دون وجود منظومة معيارية قيمية توجه أفعال الأفراد، وتحدد تماثلاتهم للخير والشر، وللمقبول والمرفوض. ومن هذا المنطلق، تكشف الدراسات الأنثروبولوجية أن لكل مجتمع نواة صلبة من "القيم المركزية" التي تولد من رحم تجاربه التاريخية، وسياقه الجغرافي، وتشغل بمثابة البصمة الجينية التي تمنحه تميزه وخصوصيته الثقافية.

ليست غایتنا في هذا المحور رصد القيم في المجتمع، ولا تناولها من منظور اجتماعي، وإنما هي إبراز ارتباط القيم بخصوصيات المجتمع بحسب طبيعة النظم السائدة فيه. لذلك سنورد باقتضاب ثلاثة نماذج من القيم الأخلاقية المركزية في ثلاثة مجتمعات مختلفة: المجتمع اليوناني، والمجتمع الفارسي، والمجتمع العربي. وذلك استناداً إلى منظور (محمد عابد الجابري) في مؤلفه "العقل الأخلاقي العربي".

– السعادة عند اليونان: (2)

إن مركز الاهتمام في المجتمع اليوناني القديم، هو الفرد (المواطن) الذي يتطلع إلى فهم الطبيعة واكتشاف قوانينها. وهو الاتجاه العام الذي سارت عليه الفلسفة القديمة. لذلك شكلت السعادة قيمة القيم، وهي تنشأ عن المعرفة (معرفة الخير والشر). وتتمثل السعادة في الثقافة اليونانية في تحقيق العدالة في قوى النفس، وتنزيلها المنزللة الفاضلة، وهي: الحكمة، الشجاعة، والعفة.

1 ينظر: وجهة ثابت العاني، القيم التربوية وتصنيفاتها المعاصرة، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2014، ص 79 وما بعدها.

2 الجابري محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص 257 وما بعدها.

– الطاعة عند الفرس: (1)

يرى الجابري أن القيم التي سعت الدولة في عهد ملوك الفرس إلى ترسيخها في المجتمع الفارسي، كلها تصب في قيمة عليا هي الطاعة. فهي القيمة المركزية لجميع تدابير النظام الفارسي الذي يسعى إلى "تدبير العامة" لتطيع ملوكها، من خلال الحث في كل المناسبات على القيم التي تخدم هذه الغاية، كالصدق والعمل والحلم والشجاعة والتواضع... وقد انتقلت هذه القيمة، حسب الجابري، إلى المجتمع العربي الإسلامي، وامتزجت بالدين لتخدم النظام العربي منذ العصر الأموي.

– المروءة عند العرب: (2)

وصلت الإشادة ببعض القيم في المجتمع العربي في الجاهلية وفي صدر الإسلام، إلى درجة أنها ارتبطت بشخصيات معينة صارت مضرِباً للمثل فيها، ككرم حاتم، وشجاعة عنترة، وحلم الأحنف، وحكمة أكنم... غير أن القيمة المركزية في منظومة الأخلاق عند العرب، كما يرى الجابري، هي المروءة. والمروءة في لسان العرب "كمال الرجولية". فهي كمال إنسانية الإنسان. وذلك، في نظر الجابري، يكفي لجعلها قيمة القيم عند العرب. وفي التراث العربي كثير من الأحداث والمواقف التي تثبت مركزية هذه القيمة، وتجعلها، وثيقة الصلة بالسود والسيادة، ولكن لا بمعنى السيادة في المجتمع النظامي الذي تحكمه قوانين موضوعة أو مجتمع الدولة، بل السيادة في مجتمع "اللدولة"، أي سيادة الفرد في قومه، وفي عشيرته وقبيلته.

إن هذا الطابع الاصطلاحي المحلي للمروءة جعلها تبدو كفضيلة عربية خالصة، لدرجة أن بعض المراجع القديمة تقرر أن "من أخلاق المروءة عدم التكلم بالفارسية في مصر عربي"، وكأن المروءة مفهوم عربي خالص. وفي هذا السياق يُنسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال: "تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة". فالمرء جزء من الهوية العربية، مشبعة بخصائصها في الجاهلية وصدر الإسلام. إنها القيمة المركزية في أخلاق القبيلة، أخلاق البداوة، ومصدر السلطة المعنوية في مجتمع القبيلة.

يتضح إذن أن القيم المركزية لمنظومة الأخلاق تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف هويته وخصائصاته الثقافية. فلاحظنا أن مركزية السعادة في منظومة القيم اليونانية تخدم غاية الاهتمام بالفرد المواطن، بينما تخدم الطاعة، باعتبارها مركز القيم في المجتمع الفارسي، غاية النظام أو الدولة. أما المروءة في المجتمع العربي فتتمثل قيمة القيم وأساس مجتمع القبيلة.

ومادام أننا حددنا الأطلس الكبير المغربي مجالا لمقاربة موضوع الهوية الثقافية وتحولات القيم، يحق لنا أن نتساءل الآن، عن الخصوصية المجسدة لهويته الثقافية، وعن القيمة المركزية في هذا المجتمع والقيم التي تُسندُها، وعن دينامية تحولها في علاقتها مع باقي الروافد الوطنية، والحضارات العالمية في سياق التغير الذي يشهده العالم اليوم.

ثانيا: الخصوصية الثقافية ودينامية التحول السوسيوثقافي في مجتمع الأطلس الكبير:

يُمثل فضاء الأطلس الكبير بالمغرب بنية سوسيوإقليمية وأنثروبولوجية بالغة التعقيد، حيث ظل لقرون يشكل نظاما جغرافيا وبشريا فريدا، طور فيه المجتمع المحلي القبلي آليات دقيقة للتكيف مع قسوة التضاريس والمناخ. وظل عبر قرون الحصن التاريخي والجغرافي الذي احتضن عراقة البنيات القبلية الأمازيغية. بيد أن هذا النسق التقليدي لم يعد معزولا عن سياق التحديث؛ إذ يخضع مجتمع

1 المرجع نفسه، ص 131 وما بعدها.

2 المرجع نفسه، ص 491 وما بعدها.

الأطلس الكبير اليوم لدينامية تغير سوسيوثقافي متسارعة، أثرت بشكل واضح على منظومة القيم. فما القيمة المركزية المجسدة للخصوصية الثقافية في الأطلس الكبير؟ وما القيم الأصيلة المعضدة لهذه القيمة المركزية؟ ما التحولات التي طرأت على هذه القيم؟

1- القيم الأصيلة في الثقافة الأمازيغية بالأطلس الكبير وتجلياتها:

تُمثل الثقافة الأمازيغية النواة الصلبة المشكلة للهوية الثقافية لمجتمع الأطلس الكبير. فهي النظام الاجتماعي المتكامل الذي عمل على مر التاريخ، على صياغة علاقة الإنسان بمحيطه البيئي والاجتماعي، وأنتجت فيه الذات الأمازيغية منظومتها المعيارية، وقيمها المشتركة الممتدة. وتتجلى هذه المركزية التاريخية في قدرة الثقافة المحلية على المواجهة الخلاقة بين مكونات الهوية الوطنية (الإسلامية والعربية والمغربية) وبين الحفاظ على الذاكرة الجماعية وعلى أصالة نمط العيش الجبلي التي تتجسد في الأرض، واللغة المحملة بالحكم والأمثال، وفنون العمارة، ومهارات تدبير الندرة... لقد أفرز هذا التفاعل الطويل للإنسان مع المجال، منظومة من القيم الأصيلة شكلت على الدوام صمام أمان حفظ تماسك الجماعة وضمن استمرارها.

والمعلوم أن أصل كلمة الأمازيغ في المعاجم هو "إمازيغن" وهو جمع "أمازيغ" وتعني الإنسان الحر أو النبيل. لذلك فقيمة الحرية هي القيمة الأسمى لدى الأمازيغ، لما تعنيه من أنفة ورفض الخنوع والاستبداد. وهذه القيمة في الحقيقة هي قيمة سامية تنشدها كل الشعوب والمجتمعات، ولا تشكل خصوصية مجتمع دون آخر. غير أنها في الثقافة الأمازيغية تنبني على قيمة مركزية هي "تيرجكرا"، وتعني "الرجولة".⁽¹⁾ وقيمة "تيرجكرا" قريبة من قيمة المروءة عند العرب، لكن مع بعض الاختلافات التي يفرضها سياق الهوية الأمازيغية خاصة في الأطلس الكبير، والمتمثل أساساً في قساوة المجال الجغرافي الجبلي والظروف الطبيعية وتقلباتها، فضلاً عن الأزمات الاجتماعية والنزاعات القبلية عبر التاريخ. الأمر الذي يضع المجتمع الأمازيغي في هذا المجال، أمام تحدي إدارة الندرة وتدبير الأزمات. فهذا التحدي يقتضي التحلي بقيمة "تيرجكرا" أو الرجولة.

وهذه القيمة، في تقديرنا، تقوم بدورها على ثلاث قيم أصيلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتدبير الأزمة وإدارة الندرة، وهي: التضامن والقناعة والصبر. وهي قيم بارزة الحضور في الثقافة الأمازيغية بالأطلس الكبير. وتتجلى هذه القيم في مختلف مظاهر الحياة، وفي السلوكات الاجتماعية في مجتمع الأطلس الكبير، كالمعمار واللباس والطقوس والمعاملات، كما تتجلى أيضاً في مختلف أشكال التعبير الشفوي من أمثال وشعر وحكايات شعبية وغير ذلك. وسنقتصر في تجلية مظاهر هذه القيم الثلاث، على نماذج من الأمثال الشعبية الأمازيغية المجسدة لها في الثقافة الأمازيغية. فالناظر في الأمثال يلمح قيماً شديدة الاتصال بالوقائع الإنسانية، فهي مستمد من حوادث حقيقية أو متصورة، رافقها فكر تأملي أو انتقادي، فاستخلص منها عبراً وقيماً جديرة بأن يفاد منها. وسنعمل في ما يلي على إبراد المثل بحرف "تفيناع" المعتمد في كتابة اللغة الأمازيغية، ثم إيراد صيغته الصوتية بالحرف اللاتيني، ثم ترجمة معناه الحرفي، وبيان المعنى المقصود.

1-1- قيمة التضامن:

تعتبر قيمة التضامن والتعاون الركيزة الأساسية الهادفة لضمان تماسك المجتمع في الأطلس الكبير. وتتجسد هذه القيمة في طقس "تويزا" الذي يشكل النموذج الأرقى لهذه القيمة، بما تمثله من تعاقد اجتماعي تنظم عبرها الجماعة جهودها في الحصاد وبناء المساكن وشق قنوات الري. وقد صيغت هذه القيمة في حكم وأمثال شعبية بليغة تعكس روح الاتحاد والتعاون. منها:

1 لا ينبغي أن نفهم من هذا اللفظ أن القيمة خاصة بالرجال دون النساء، فالمرأة الأطلسية لا تقل شأنًا عن الرجل في اتصافها بهذه القيمة، وبالقيم الأصيلة التي تسنّها.

- المثل 1: 0.H:0 X :H:0 0.A XH00:0 +.M:Z+

✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني: Afos g ofos ar tfsos tazeyt.

✓ المعنى الحرفي: "اليد في اليد لكي يَحْفَ الثَّقُل".

يعكس هذا المثل فلسفة العمل الجماعي وإدارة الأزمات في جبال الأطلس الكبير، ويعبر عن وعي عميق بأهمية التضامن وتدبير الجهد البشري لمواجهة تحديات المحيط الجغرافي وقسوة الطبيعة. فالعمل الجماعي المتمثل في "تويزا"، يتحول بموجب هذا التمثيل، من سلوك نفعي إلى واجب أخلاقي وروحي، يهدف إلى تذليل الأزمات، وتوطيد التماسك العضوي للجماعة، حيث يغدو الحفاظ على التوازن المجالي والاجتماعي رهينا بمدى تشابك الأيدي، والتعاقد الضمني بين مكونات المجتمع.

- المثل 2: X.0.0 M:0A XE:E.0 GOR.0 +XAXR0+

✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني: Gatagh zund idudan, chrkat tidiklt.

✓ المعنى الحرفي: "لنكن كالأصابع نشترك في راحة اليد".

يقر هذا المثل بالاختلافات الفردية بين أعضاء الجماعة، فهم كالأصابع المتفاوتة، لكنه يربط مصيرها العضوي والنفعي بحتمية الالتحام داخل الجماعة كما تلتحم الأصابع براحة اليد. وهو تمثل يوضح كيف تُوازِن الثقافة المحلية بين حرية التميز الفردي، والالتزام القيمي التضامني المشترك.

2-1- قيمة الصبر:

الصبر قيمة أصيلة في ثقافة الأطلس الكبير. وهي، فضلا عن ذلك، آلية استراتيجية طوّرها المجتمع المحلي لمواجهة صعوبات المحيط الجغرافي وقسوة المناخ. فالصبر في البيئة الأطلسية وثيق الارتباط بتدبير الندرة؛ إذ يتجسد سلوكيا في تحمل وعورة التضاريس، وشح الموارد الغذائية والمائية، وقساوة فصول الشتاء. وتتجاوز هذه القيمة بعدها الفردي لتصبح قيمة تعاقدية جماعية تعضد القيمة المركزية "تيروكزا"، ف"الرجل" (أو "المرأة") في المجتمع الأطلسي، هو الذي يصبر على الشدائد، ويتخطى الأزمات بتجلده. وتجد هذه القيمة مرجعيتها وقوتها في تعاليم الدين الإسلامي، وفي الموروث الشفاهي الأمازيغي الغني بالحكم والأمثال السائرة؛ حيث يُنظر إلى الصبر كدليل على الرجولة والصلابة النفسية كما في المثالين الآتيين:

- المثل 1: 000 0.XX X :OX.0, 0.0A 0.0X :0X

✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني: Sbr aymi iweran ard yali odi.

✓ المعنى الحرفي: "اصبر يا فمي للأركان حتى يتوفر السمن".

يدعو المثل إلى التحلي بقيمة الصبر في مواجهة العوز والفاقة، وإلى تحمل شظف العيش الحالي في سبيل مستقبل أفضل. وهو يجسد بشكل صريح تدبير الندرة بمجتمع الأطلس الكبير؛ فزيت الأركان كان يمثل تاريخيا في الثقافة المحلية الغذاء اليومي المتاح للجميع، والملازم لأوقات القلة والجهد، بينما يمثل السمن قوت الميسورين والأغنياء. والمثل يدعو الفرد إلى مواءمة حاجاته الحيوية مع إمكانيات محيطه دون تدمير. وهو وعي وجودي يتجاوز البُعد الغذائي إلى التطلع نحو الارتقاء الاجتماعي بالصبر والصمود.

- المثل 2: :0 XA:C :0M.O, :0 XA:C :00XA XZV

✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني: Or idom onzar, or idom obrid iqqen.

✓ المعنى الحرفي: "لا يدوم المطر ولا يدوم الطريق المغلق".

المعنى: يُضرب المثل لشحذ الهمم أثناء الحن والشدائد؛ فالأزمات مهما بلغت قسوتها مؤقتة، والفرج قادم لا محالة كما تفتح الطرقات التي انقطعت، بعد توقف الثلوج والأمطار. ويربط المجتمع الأطلسي، في هذه الحكمة، بين تقلبات الطبيعة وتقلبات الحياة. فكما أن العواصف والأمطار الغزيرة التي تقطع الطرقات في الجبال، لا بد أن تتوقف لتشرق الشمس من جديد وتُفتح المعابر، فإن الأيام العصيبة والظروف الصعبة التي تواجه الإنسان في حياته، هي أيضا مجرد عوارض مؤقتة ستزول حتما.

1-3- قيمة القناعة:

تعد قيمة القناعة من الركائز الأخلاقية في مجتمع الأطلس الكبير؛ فقد فرضت الحياة في البيئات الجبلية والقروية الصعبة على الإنسان الأمازيغي أن يتعايش مع الموارد المتاحة بذكاء وتوازن. فبوأ قيمة القناعة مركز الصدارة، حيث جعل منها وسيلة لمقاومة عدم وفرة المواد والخيرات المادية. ولا أدل على ذلك من الاحترام الذي يحظى به الحبز، لدى الأفراد والأسر. وقد لا يجد هذا السلوك مكاناً له في مجتمع الوفرة. والأمثال الشعبية تُرسخ مفهوم القناعة كدرع يحمي الفرد من الطمع، ويضمن استقرار المجتمع، ومن ذلك:

- المثل 1: $\square \circ \Pi \circ \Sigma \circ \Pi \circ \Sigma, \Sigma \circ \Pi \circ \Sigma \circ \Pi \circ \Sigma$

Wanna iran kollo izli kollo. ✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني:

✓ المعنى الحرفي: " من طلب الكلّ ضيّع الكلّ".

يدعو المثل إلى القناعة والقبول بالحصص العادلة، والرضا بالمتاح، كشرط أساسي لضمان الاستقرار؛ ففي بيئة جبلية قاسية تتميز بندرة الموارد، يؤدي النزوع نحو الجشع ومحاولة الاستحواذ على كل شيء، من طرف شخص واحد أو زمرة واحدة، إلى النزاع داخل الجماعة، وقد ينتهي الأمر بهذا الفرد أو تلك الزمرة إلى الاغتراب، وفقدان الحماية التضامنية التي توفرها الجماعة.

- المثل 2: $\text{X}_2\text{O} + \text{I}_2\text{O}_5 + \text{H}_2\text{O} \rightarrow \text{H}_2\text{XO}_4 + \text{HIO}_3$

✓ صيغة المثل بالحرف اللاتيني: Gar tajddigt n tmort nnk tof ijddign n mddn.

✓ المعنى الحرفي: "أقل زهرة شأننا في أرضك، خير من أبهى الزهور في حقول الآخرين".

يُجسّد هذا المثل قيمة القناعة والرضا بما يملكه المرء وإن قل شأنه، فهو يُعلي من شأن "المُتاح المحلي" في مقابل "المنشود الخارجي". والقناعة هنا لا تعني الاستسلام أو الخنوع، بل تعني التقدير العقلاني والوجداني للمكتسبات الذاتية والثقافية للمجتمع الجبلي، واعتبار أن القليل النابع من الأرض والأصل (الزهرة المتواضعة) يحمل بركة تفوق بريق ما يمتلكه الأغراب من وفرة وزينة (أزهار الآخرين).

لقد حافظ مجتمع الأطلس الكبير منذ قرون على تماسكه وتوازنه الاجتماعي، من خلال الحرص على صون قيمه التقليدية الأصيلة. وهي القيم التي مكنته من تدبير الندرة وإدارة الأزمات داخل هذا الفضاء. كما مكنته من المساهمة الفاعلة في إغناء الثقافة المغربية، وتغذية روح المواطنة، في تناغم تام مع باقي روافد الهوية المغربية ضمانا لوحدة الوطن، وصونا لتاريخه المجيد. غير أن هذه القيم بدأت تشهد تحولات واضحة في سياق التطورات العالمية التي طبعته جميع مناحي الحياة.

2- دينامية التغير وتحولات القيم في مجتمع الأطلس الكبير:

في سياق التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم، بدأت القيم في مجتمع الأطلس الكبير تشهد تحولات وتغيرات ملموسة طبعت سلوكيات الأفراد، وعلاقاتهم ببعضهم البعض وبالمكان والزمان، كما طبعت الأعراف والعادات والطقوس، ومختلف مظاهر الحياة الخاصة والعامة. وسنحاول بإيجاز في ما يأتي رصد ملامح هذه التحولات في المجتمع الأطلسي، استناداً إلى الدراسة الميدانية الوطنية حول القيم وتفعيلها المؤسسي، الصادرة عن مجلس النواب المغربي خلال الولاية الحالية (2021 – 2026).⁽¹⁾

سعت هذه الدراسة الميدانية إلى تحديد أهم التغيرات القيمية التي حصلت في المجتمع المغربي الراهن، عبر رصد انتظارات المواطنين، واتجاهاتهم حول تفعيل القيم في المؤسسات العمومية والخاصة والمدنية. وتشمل عينة الدراسة جميع جهات المغرب، مقسمة على خمسة مجالات. ويندرج فضاء الأطلس الكبير، موضوع اشتغالنا في هذا المقال، ضمن المجال الرابع وهو، حسب ما ورد في التقرير الثاني حول الدراسة، مجال واسع يشمل المناطق الوسطى في المغرب، ويمتد من جبال الأطلس المتوسط إلى جبال الأطلس الكبير، ويتميز بازدواجية واضحة بين ثقافة حضرية متجذرة في التاريخ، وثقافة ولغة أمازيغيتين ما زالتا حاضرتين بقوة في مناطقه الحضرية والجبلية على وجه الخصوص.

أكدت الدراسة أن المغاربة سجلوا تراجعاً قوياً لقيم كثيرة شكلت على الدوام مقوماً هاماً لتضامن أفراد الأسرة والمجتمع، وفي اتجاه محيطهم القريب، كقيم التماسك الاجتماعي وقيم التعاون والاحترام بين الأجيال. فقد شهد المجتمع المغربي تحولات قيمية واضحة في السنوات الأخيرة، تتسارع فيها دينامية التغير نحو اتساع حضور قيم كونية جديدة، مع ملاحظة أن دينامية التغير هذه بطيئة نسبياً في المناطق القروية والجبلية، كالأطلس الكبير، مقارنة مع الحواضر والمدن الكبرى. وتُرجع الدراسة ذلك إلى عوامل عدة أبرزها:

- ✓ التعليم العام الذي صار يكمل وينافس الأسرة في التنشئة على القيم؛
- ✓ النزوح المكثف نحو المدن، وما نجم عنه من تراتب قيمى لفائدة القيم الحضرية؛
- ✓ نجاح التخطيط العائلي وانتشار موانع الحمل ودور ذلك في تغيير دور النساء؛
- ✓ إشراف الدولة على سيروية التنمية والانتخابات والتأطير الإداري الشامل للسكان بما ترتب عنه من تقوية لتبعثهم للدولة، وبرز وعي متزايد بأهمية القيم الديمقراطية؛
- ✓ التطور الرقمي والتكنولوجي، والانتشار المتزايد لوسائل التواصل.

ومن تجليات هذه التحولات، التوجه نحو تبني تطلعات جديدة تنزع نحو الفردانية والعقلانية النفعية، مقابل تراجع قيم التضامن والتعاون، وتراجع قيم الحشمة والوقار واحترام الوالدين، وما شمل الثقافة الاستهلاكية لدى الأبناء؛ حيث تكشف أمثلة من المعيش اليومي للمشاركين في الدراسة، عن هذه التحولات، على مستوى توجيه اختيارات الأبناء وتمضية أغلب الأوقات مع جماعة الأقران، وعدم مشاركة الأسرة الوجبات الغذائية في إطار التجمعات التي كانت مألوفة من ذي قبل.

ويؤكد تقرير الدراسة أن تغير المحيط الاجتماعي، وشروط العيش في المناطق الجبلية، أدى إلى تراجع طقس "تويزا"، مما يجعل الحفاظ على قيمة التضامن أمراً صعباً، حتى في ظل توفر إرادة ضمان استمرارها. فإذا كان الآباء يرون أن هذا الطقس تضامناً يدعم تماسك الجماعة، فإن الشباب صاروا ينظرون إلى هذا الطقس باعتباره عملاً شاقاً وغير مجدٍ، خاصة بعد ظهور فرص العمل المأجور.

1 مجلس النواب المغربي، الدراسة الميدانية الوطنية حول القيم وتفعيلها المؤسسي: تغيرات وانتظارات لدى المغاربة. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، دجنبر 2022.

وهو ما يفسر التحلي عن "توزيعا" في أغلب المناطق القروية المغربية، لكن مع استمرار التشبث بالعديد من أشكال التضامن العائلي والجماعي الأخرى، كتدبير المراعي والأراضي الجماعية، وصيانة قنوات الري، وتقديم الدعم للعائلة.

وقد لوحظ، على ضوء آراء المستجوبين ومواقفهم، أن تفضيل المرجعية التقليدية القائمة على قيم التضامن والقناعة والرجولة و "المعقول"، يحضر بشكل أقوى لدى المشاركين من مناطق جغرافية محددة، منها الأوساط القروية والجبيلية على الخصوص، في مقابل التركيز على قيم الفردانية والربح والمنفعة الاقتصادية، والتدبير الاقتصادي المشترك للأسرة، بالمراكز الحضرية الكبرى حيث تم تجاوز دوائر الانتماء التقليدية التي تركز على القرابات الأولية كالأُسرة الممتدة والعشيرة والقبيلة...

وخلصت الدراسة الكيفية، على مستوى الأسرة، إلى وجود اتجاه قوي جدا لدى المغاربة نحو تفعيل القيم داخل هذه المؤسسة. وذلك لما تمثله من مكانة رمزية لدى معظمهم. بهدف مجابهة التحديات القيمية التي تفرضها دينامية التغير في المناطق الجبلية على الخصوص. ومنها، حسب الدراسة:

✓ **تحديات داخلية:** تتمثل في الفردانية المتصاعدة، وتزايد النزعة نحو قيم التملك والاستهلاك، والقيم النفعية بدل التركيز على التضحية. وتراجع قيم الانسجام والتآلف والاحترام بين الأجيال. وتراجع قيم القناعة والكفاف، وتقل الأدوار والمسؤوليات المسندة للأسرة في حماية أفرادها.

✓ **تحديات خارجية:** تتمثل على الخصوص، في التطور التكنولوجي والرقمي، وضعف السياسات الأسرية، وتفعيل قيمة الإنصاف، وتراجع قيمة الانفتاح على الجوار.

وعموما فإن المطلع على مضامين الدراسة وخلاصاتها، سيلاحظ أن دينامية التغير وتحولات القيم في المناطق الجبلية المغربية على الخصوص، ومنها الأطلس الكبير، لم تؤثر بشكل كبير في البنية القيمية للمجتمع، خلافا لما عرفته الكثير من المجتمعات التي أدت فيها الفردانية إلى انكسار الرابط الاجتماعي؛ فالقيم المغربية الأصيلة شكلت على الدوام الحصن المنيع للمجتمع الأطلسي، وخاصة على مستوى الأسرة التي تطورت بشكل لا يقطع مع هذه القيم من جهة، ولا يلغي دور الفرد وتطلعاته في إطار فردانية متضامنة من جهة ثانية. وتشبث المغاربة بهذه القيم، لا يضاهيه إلا حرصهم على الانفتاح على قيم كونية معززة ومقوية لها. وهذا التوليف الفريد بين الكوني والمحلي هو الجدير بإكساب المجتمع مناعة أقوى؛ بحيث لا يشكل قطيعة مع النموذج القيمي التقليدي ويتماها مع الكونية، ولا ينغلق على الذات باسم الخصوصية.

إن الحفاظ على هذا الوضع الفريد يفرض على المجتمع المغربي، وعلى مؤسسات الدولة برمتها، بذل جهود دائمة من أجل تدبير الاختلاف، وترسيخ قيم العيش المشترك في الفضاء العام. ويفرض على أي سياسة عمومية تروم تحقيق العدالة المجالية، مراعاة البعد المحلي والخصوصيات الثقافية للمجال. ويضع المدرسة المغربية المعاصرة على الخصوص، أمام مسؤولية إدماج القيم الأصيلة المجسدة للخصوصيات الثقافية المغربية المتنوعة، في برامجها التعليمية، وتوسيع مدخل التربية على القيم ليشكل رافعة لتعزيز المواطنة الإيجابية المتلاحمة.

ثالثاً: سؤال التربية على القيم في المدرسة المغربية ومواكبة التحول:

تشكل التربية على القيم أحد أهم مرتكزات الحياة الإنسانية؛ فهي المدخل الأساس لضمان الاستقرار الاجتماعي وتماسك بنياته، واستمرار خصوصياته الثقافية. وتضطلع المدرسة، إلى جانب الأسرة والإعلام والمؤسسات التأطيرية والثقافية، بدور محوري في تربية الناشئة على القيم المجتمعية الفاضلة، وفي إدارة الرأسمال اللامادي للمجتمعات. وذلك من خلال دمج القيم المرغوبة في المناهج والبرامج الدراسية، والعمل على تصريفها عبر المواد الدراسية الحاملة للقيم على الخصوص. وارتباطاً بالتحولات السوسيوثقافية التي يشهدها مجتمع الأطلس الكبير، غدا من الضروري إثارة سؤال التربية على القيم، للكشف عن مدى حضور القيم المركزية الأصلية المجسدة لخصوصية هذا الفضاء في المناهج الدراسية، ورصد مدى مساهمة منظومة التربية والتكوين لدينامية التغيير القيمي التي يشهدها هذا الفضاء.

1- حضور القيم في المناهج الدراسية المغربية:

حددت الوثيقة الإطار الصادرة عن لجنة الاختيارات والتوجهات سنة 2002 ثلاثة مجالات تتوزع وفقها اختيارات المنظومة التربوية، هي: مجال القيم، ومجال الكفايات، ومجال المضامين. ويحدد الميثاق الوطني للتربية والتكوين، في مجال القيم، جملة من المرتكزات منها: تعزيز قيم العقيدة الإسلامية، وترسيخ الهوية المغربية والحضارية، والوعي بتنوع وتكامل روافدها، ونشر ثقافة حقوق الإنسان والمواطنة، وترسيخ قيم المعاصرة والحداثة، والتفاعل الإيجابي مع المحيط الاجتماعي والبيئي والطبيعي والموروث الثقافي والحضاري.⁽¹⁾

وتنص "الرؤية الاستراتيجية للإصلاح" على إدماج المقاربة القيمية والحقوقية، في صلب المناهج والبرامج والوسائط التعليمية، مع العمل على تجسيدها الفعلي داخل البيئة المدرسية. وعلى إذكاء حس الانتماء إلى الوطن في تلاحم وتنوع مقومات هويته، ومكوناتها العربية والإسلامية والأمازيغية والصحراوية الحسانية، وغنى روافدها الإفريقية والأندلسية والعربية والمتوسطية. ومن أجل تقوية الاندماج السوسيوثقافي، تؤكد الرؤية الاستراتيجية أيضاً، على أن المدرسة الجديدة يتعين عليها الاضطلاع بمهمتها في تحقيق الاندماج الثقافي عبر جعل الثقافة بعداً عضوياً من أبعاد وظائفها الأساسية، على نحو يضمن نقل التراث الثقافي والحضاري والروحي المغربي؛ وترسيخ التعددية الثقافية والانفتاح على ثقافات الغير، وضمان ولوج سلس ومنصف للثقافة بين المجالات التربوية.⁽²⁾

وإذا تتبعنا موضوع القيم في وثائق التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس المواد الدراسية، بالسلك الثانوي بالتعليم المدرسي المغربي، سنجد أن هذه الوثائق تنص على عدد من القيم الإنسانية الكونية، والوطنية والمجتمعية، حسب طبيعة كل مادة:

✓ في مادة اللغة العربية: تؤكد الوثيقة ما ورد في الميثاق الوطني عبد إيراد القيم الآتية:

- ترسيخ الهوية المغربية والحضارية والوعي بتنوع وتفاعل وتكامل روافدها؛
- التفتح على مكاسب ومنجزات الحضارة الإنسانية المعاصرة؛
- تكريس حب الوطن وتعزيز الرغبة في خدمته؛
- تنمية الوعي بالواجبات والحقوق والتربية على المواطنة وممارسة الديمقراطية؛
- التشجيع بروح الحوار والتسامح وقبول الاختلاف، وترسيخ قيم المعاصرة والحداثة؛

1 ينظر: الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مرجع سابق، القسم الأول: المرتكزات الثابتة والغايات الكبرى.

وينظر أيضاً: وثيقة "التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي"، نونبر 2007، ص 3.

2 ينظر: الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030، مرجع سابق، ص 53، 55.

- تنمية الذوق الجمالي والإنتاج الفني والتكوين الحرفي في مجالات الفنون والتقنيات؛
- تنمية القدرة على المشاركة في الشأن المحلي والوطني.
- ✓ في مادة التربية الإسلامية: تنص الوثيقة على أن مواصفات المتعلم في مجال القيم تتمثل في جعله:
 - متشبعاً بقيم الدين الإسلامي؛
 - معتزاً بهويته الدينية والوطنية، ومحافظاً على تراثه الحضاري،
 - منفتحاً على قيم الحضارة المعاصرة في أبعادها الإنسانية؛
 - ملماً بقيم الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان المنسجمة مع خصوصيته الدينية والوطنية والحضارية؛
 - متمسكاً بالسلوك الإسلامي القويم والمثل العليا المستمدة من روح الدين الإسلامي.
- ✓ في مادة التاريخ والجغرافيا: تشير الوثيقة إلى عدد من القيم التي تحققها المادة، منها:
 - قيم الهوية ومبادئها الأخلاقية والثقافية وقيم المواطنة والتي تعد مادة التاريخ حاملة لها؛
 - التفاعل الإيجابي مع المحيط الاجتماعي على اختلاف مستوياته؛
 - الوعي بالزمن والوقت كقيمة في المدرسة والحياة؛
 - احترام البيئة الطبيعية والتعامل الإيجابي مع الثقافة الشعبية والتراث الثقافي والحضاري؛
- ✓ في مادة الفلسفة: تؤكد الوثيقة على تربية المتعلمين على جملة من القيم منها:
 - القيم الدينية والوطنية؛
 - قيم المواطنة وحقوق الإنسان؛
 - حرية التفكير، باعتبارها حقاً ومسؤولية من ينخرط فيها؛
 - احترام أفكار الآخر باعتبار أسسها العقلية والأخلاقية؛
 - الحوار باعتباره طريقاً لبناء حقيقة لا يمتلكها أحد بعينه.

يلاحظ من خلال تتبع حضور القيم في الوثائق المرجعية المؤطرة للمنظومة التربوية المغربية، عناية هذه الوثائق بالتربية على القيم بشكل قوي وبارز، باعتبارها أحد الأدوار المهمة للمدرسة إلى جانب تنمية المهارات والكفايات المعرفية والمنهجية، وتأهيل المتعلمين والمتعلمين إلى الاندماج في الحياة المهنية. وهي تنص بشكل صريح - إلى جانب ترسيخ القيم الوطنية والتشبث بالهوية الثقافية المغربية والانفتاح على القيم الإنسانية الكونية والثقافات الأخرى - على مراعاة تنوع وغنى الروافد السوسيوثقافية للمغرب، والتي تعد الهوية الثقافية للأطلس الكبير جزءاً لا يتجزأ منها. فهي بذلك تولي للخصوصيات المحلية والروافد الثقافية أهمية واضحة في ترسيخ القيم، وتمنح مساحة مهمة للتربية على قيمها الأصيلة، في تناغم وانسجام مع القيم الوطنية والإنسانية الكونية. ويبقى تفعيل هذه التصورات والتوجهات العامة رهيناً بتنزيلها على مستوى الممارسة الفعلية داخل المدرسة المغربية، وتفعيل الحياة المدرسية، وعلى مستوى اختيار مضامين الكتب المدرسية الملائمة للمناهج التعليمية.

2- ملامح الخصوصية الأطلسية في الكتب المدرسية:

يقتضي رصد ملامح الخصوصية الثقافية للأطلس الكبير في الكتب المدرسية، إخضاع محتوياتها لمقاربة تحليلية كمية وكيفية، بهدف رصد مدى التوافق بين توجهات المنهاج النظرية التي تؤكد على التنوع السوسيوثقافي المغربي، وواقع التنزيل الديداكتيكي للقيم المجسدة لخصوصية هذا الفضاء، ضمن الإطار العام لهذا التنوع. ولا شك أن هذه العملية تقتضي مساحة أوسع للبحث لا يتسع لها المجال في هذه المقالة. لذلك سنقتصر على رصد ملامح حضور الخصوصية الثقافية للأطلس الكبير وقيمه، في بعض الكتب المدرسية لمادة اللغة العربية بالسلك الإعدادي، وتحديدًا من خلال مكون النصوص القرائية.

يتوزع برنامج مادة اللغة العربية بالسلك الإعدادي على مجالات قيمة مختلفة تخدم في ظاهرها الثقافة المحلية، أبرزها "المجال الحضاري" و"المجال الفني والثقافي"، غير أن المسح البيليوغرافي للنصوص القرائية بالسلك الإعدادي، يكشف عن ندرة في النصوص التي تعالج سوسيولوجيا وجغرافيا الأطلس الكبير بشكل مباشر. وتُستثنى من ذلك بعض النصوص الكلاسيكية مثل: نص "الأطلس": للكاتب محمد الكتاني ضمن كتاب المفيد في اللغة العربية في السنة الأولى؛ فعلى الرغم من الشحنة الوجدانية للنص التي تشيد بمواجهة السكان للاستعمار، وتصف الجبل كمعلمة طبيعية مغربية متميزة، إلا أنه يتناول هذا الفضاء بشكل تجريدي عام يختزل الأطلس في أبعاده الطبوغرافية والتاريخية، دون استثمار نسيجه القيمي الأصيل كقيمة التضامن المتجسدة في طقس "تويزا"، وقيم الصبر والقناعة والتكيف وتدبير الندرة.

ومن ذلك أيضا نص "أصول الثقافة المغربية": لصاحبه محمد العربي الخطابي، ضمن كتاب المرجع في اللغة العربية، في السنة الثانية إعدادي (أو "الأبعاد الحضارية للثقافة المغربية" للكاتب نفسه، ضمن كتاب في رحاب اللغة العربية بالمستوى الدراسي نفسه). وهو نص يُقر نظريا بتنوع الروافد وتكاملها، لكنه يكتفي بالتنظير للمفهوم دون إيراد شواهد إثنوغرافية، كأمثال شعبية أو أعراف مكتوبة تُقرب تلميد المنطقة من هويته الأمازيغية، وبيئته الثقافية الحية والفاعلة.

وعلى مستوى الدعامات البصرية، تُمثل الصورة في الكتاب المدرسي وسيطا سيميائيا مركزيا لبناء التمثيلات الوجدانية والجمالية لدى المتعلم. بيد أن رصد الصور المعتمدة في الكتب المدرسية، الخاصة بمادة اللغة العربية في السلك الإعدادي، والمرافقة للنصوص القرائية، يكشف بوضوح عن هيمنة الفضاء الحضري في تمثيل الهوية المغربية؛ حيث تحضر بقوة معالم حضرية كبرى كصومعة الكتبية بمراكش، ومسجد الحسن الثاني بالبيضاء، والمدينة القديمة بفاس... وفي المقابل، يسقط الفضاء السوسيوجمالي للأطلس الكبير من المشهد الأيقوني أو الرمزي للدعامات الديداكتيكية المرافقة للنصوص؛ فلا نجد تمثيلا بصريا لعمارة الجبل الطينية والحجرية، ولا خطاطات ديداكتيكية تشرح نظام تدبير المياه والندرة الجبلية، ولا صورا فوتوغرافية للتلاحم الجماعي أثناء المواسم الفلاحية، والتضامن الجماعي المجسّد في طقس "تويزا". إن هذا الإقصاء البصري يقدم رسالة ضمنية توحى بأن التراث والثقافة والتحضر هي سمات ملازمة للمجال الحضري، في حين يظل فضاء الجبل مجرد ديكور طبيعي هامشي. الأمر الذي يكرس نوعا من الاغتراب الوجداني لدى تلميذ الأطلس الكبير الذي لا يجد أثرا لملامح حياته اليومية في البيئة المدرسية.

وعموما فإن فحص مضامين النصوص القرائية في الكتب المشار إليها، يظهر بوضوح غياب أي تمثيل بيداغوجي صريح وواضح لخصوصيات الأطلس الكبير وقيمه المجتمعية؛ فبينما تحشد الوحدات الدراسية عناوين توحى بمعالجة الخصوصيات المحلية كتدبير ندرة المياه، والمرأة القروية، والتراث اللامادي، والطقوس الغنائية (نص أحواش) وغيرها، تتم معالجة هذه القضايا بنصوص عامة ومجردة تُحاكي غالبا فضاء السهول أو الحواضر، وتظل أسيرة المقاربة السياحية الفلكلورية، وتقصي النظم العرفية الإيكولوجية والتضامنية

للأطلس، والموروث الشفهي الأمازيغي الغني بالأمثال المنظمة للفعل الإنتاجي والتضامني. وحتى نص "الأطلس" الفريد، سقط في فخ المقاربة التاريخية دون استحضار النسق القيمي للمجتمع. مما يجعل هذه الكتب المدرسية تفتقر إلى الملاءمة التربوية والتوطين البيداغوجي الفعلي، اللازم لإنصاف متعلم البيئة الجبلية وإدماجه في البيئة المدرسية، دون اغتراب نفسي أو قيمي، في مفارقة واضحة بين هذه الكتب وبين التوجهات الواردة في المرجعيات التربوية المغربية الداعية إلى دمج الخصوصيات الثقافية في البرامج الدراسية، وترسيخ قيمها الأصيلة. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على باقي الخصوصيات المحلية في الثقافة المغربية كالثقافة الصحراوية والريفية وثقافة الأطلس المتوسط، التي ينبغي أن تمنح لها مساحات واضحة في المقررات الدراسية، وفي أنشطة الحياة المدرسية، ومشاريع المؤسسات التعليمية.

3- الخصوصيات الثقافية وتفعيل القيم بالمدرسة المغربية: تحديات وآفاق

رغم أهمية المكتسبات التي حققتها المدرسة المغربية، فإن واقعها اليوم يكشف عن تحديات وإكراهات موضوعية في مجال التربية على القيم، وتفعيلها بما يضمن إسهامها في التنشئة الاجتماعية القادرة على صون الثقافة المغربية بروافدها المتعددة، وترسيخ قيمها الأصيلة، مع الانفتاح على القيم الإنسانية الكونية في الآن نفسه. فإذا انطلقنا من واقع الممارسة الفعلية بمؤسسات التربية والتكوين، واستناداً إلى تقارير ودراسات رسمية حول موضوع القيم،⁽¹⁾ يمكن أن نرصد جملة من التحديات المرتبطة بدمج الخصوصيات الثقافية في البنية القيمية التربوية، منها:

- **نزعة التمرکز الحضري:** هيمنة النماذج والتمثيلات الحضرية على مضامين الكتب المدرسية المقررة، مقابل غياب شبه تام للخصوصيات الأنتروبولوجية وأنماط العيش بالوسط القروي والجلي؛
- **تجريد الخطاب القيمي:** معالجة قيم الهوية وروافدها المحلية بأسلوب نظري مجرد، دون النفاذ إلى عمقها القيمي الوظيفي، وإبراز أشكائها الحية كطقس "تويزا" وأعراف تدير الماء والمراعي؛
- **التفاوت بين التنظير والممارسة:** التفاوت بين أهداف التربية على القيم في المناهج التربوية، وبين واقع الممارسة التربوية في المدرسة؛ حيث يتم اختزالها في مجرد مادة دراسية، ونادراً ما يتم توظيفها في العلاقات الصفية والحياة المدرسية؛ الأمر الذي يكرس المفارقة القائمة بين الخطاب النظري حول القيم وتنوعها الثقافي في المرجعيات التربوية، وبين الممارسة الفعلية المحدودة الأثر في الواقع؛
- **ضعف تكامل منظومة القيم:** ضعف قدرة المنظومة التربوية على تحقيق الاندماج والتكامل في منظومتها القيمية بشكل يضمن التناغم والنجاعة، ويراعي تكامل المرجعيات المؤطرة للمنظومة القيمية المجتمعية، كما بلورها دستور المملكة؛
- **ضعف حضور المتن الثقافي الشفهي المحلي:** ضعف استثمار الشعر والحكم والأمثال والقصص الشعبية المتداولة في محيط المتعلم، وتوظيفها كدعامات ديدكتيكية في ترسيخ القيم. ومن ذلك مثلاً الأمثال الأمازيغية المتداولة في الأطلس الكبير، والتي من شأنها تحفيز المتعلم على تبني مواقف إيجابية تجاه مختلف القضايا ذات الصلة بالقيم الوطنية والكونية؛
- **جدلية التصادم بين الكونية والخصوصية:** ضعف الآليات الديدكتيكية القادرة على تجسير الهوية، والتوفيق الإيجابي، بين مبادئ الحداثة والانفتاح على القيم الإنسانية الكونية وبين القيم التقليدية الأصيلة المحلية في بيئة الجبل؛
- **ضعف التكوين الأساس والمستمر:** غياب مجزوءات تؤهل الأطر التربوية لإدارة التنوع الثقافي، وتدريبهم على آليات "التوطين البيداغوجي"، وتفعيل أبعاد الحياة المدرسية لخدمة الموروث المحلي؛

1 ينظر: المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، تقرير رقم 17/1 حول التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي، يناير 2017، وتقرير المجلس الأعلى للتعليم حول حالة منظومة التربية والتكوين وآفاقها، 2008. وينظر أيضاً: تقرير الخمسينية (خمسون سنة من التنمية البشرية وآفاق سنة 2025).

- أزمة الشراكة التربوية: ضعف قنوات التواصل والشراكة بين المدرسة ومحيطها الأسري والاجتماعي، خاصة في البيئة الجبلية، مما يجعل المدرسة معزولة في مواجهتها لتحولات القيم الناتجة عن الزحف الرقمي المعاصر، وضغوط العولمة الاستهلاكية؛
 - استناداً إذن، إلى ما قدمناه في هذه الورقة، واستحضاراً للمرجعيات التربوية المغربية الرامية إلى جعل المنظومة التربوية رافعة من رافعات الارتقاء بمجتمع تسوده منظومة القيم المنصوص عليها في الدستور، نرى أن المدرسة المغربية بكل مكوناتها، مدعوة إلى بدل مزيد من الجهد في مجال التربية على القيم، لمواكبة التحولات القيمية، وتأمين الخصوصيات الثقافية المغربية وتفعيل قيمها، كالأطلس الكبير على سبيل المثال. وإسهاماً في تحقيق هذه الغاية نقدم المقترحات والتوصيات الآتية:
 - تبني مقارنة تكاملية في التربية على القيم، تستحضر تفاعل مختلف الجوانب المعرفية واللغوية والمهارية والقيمية، وتدمج مختلف المكونات السوسيوثقافية وخصوصياتها في تناغم وانسجام مع متطلبات الحداثة والتحولات التكنولوجية والرقمية بهدف نقل القيم بأساليب مبتكرة ومقنعة⁽¹⁾
 - الانطلاق في التربية على القيم من تعزيز قيم الوطنية، وربطها بقيم المواطنة الكونية وحقوق الإنسان، مع مراعاة التنوع والترابط بين مكونات المجتمع المغربي والاعتزاز بخصوصياته المحلية؛
 - تخصيص نسبة محددة (بين 10% و 15%) في المناهج والبرامج التعليمية للتوطين البيداغوجي للخصوصيات الجهوية والمحلية، مما يتيح للأكاديميات الجهوية والفاعلين المحليين الإسهام في اقتراح دعائم ديداكتيكية نابعة من خصوصية المحيط الجغرافي والثقافي للمتعلم؛
 - إدماج المكونات الثقافية في المقررات والأنشطة الدراسية المعنية بالتربية على القيم، وتشجيع المتعلمين على الإبداع والابتكار التربوي، وخاصة عبر الوسائل والإمكانات التي يتيحها التقدم التكنولوجي والرقمي، لحفزهم على الانخراط الإيجابي في مختلف الأنشطة الداعمة للتربية على القيم وتملكها؛
 - تكريس الممارسات الهادفة إلى ترسيخ الحس الوطني والانتماء المشترك، داخل فضاء المدرسة، وإشراك المتعلمين في النقاش وتبادل الآراء حول مواضيع البيئة والتنوع الثقافي وحوار الحضارات لتنمية الاعتزاز بقيم الانتماء إلى المغرب كبلد بهوية متنوعة الروافد، متعدد المكونات اللغوية والثقافية والحضارية، مع التشجيع بالقيم الكونية المرتبطة بحقوق الإنسان، والقدرة على الاندماج في المواطنة العالمية؛
 - إدراج وحدات ومجزوءات للتكوين الثقافي والتربية على الثقافة في برامج تكوين الأطر التربوية، مع السهر على تكوين المدرسين على التعددية الثقافية، وعلى بيداغوجيا التوجيه والحياد الإيجابي؛
 - استثمار مشروع المؤسسة لعقد شراكات مع الفاعلين المحليين وإشراك الأسر في بلورة أنشطته بما يسمح بتأمين الممارسات المواطنة الهادفة إلى تنمية القيم الإيجابية تجاه المدرسة ومحيطها الاجتماعي؛
 - تبني سياسة تعليمية مندمجة في مجال الثقافة والتربية على القيم، ووضع برامج التقائية بين مختلف الفاعلين الجهويين والمحليين من قطاعات حكومية ومؤسسات منتخبة ومدنية، وإرساء آليات التنسيق والتواصل فيما بينها؛
- إن الدعوة إلى تفعيل القيم ذات البعد الخصوصي في الثقافة المغربية لا يعني، بأي شكل من الأشكال، رسم حدود فاصلة بين الروافد السوسيوثقافية المغربية، أو تكريساً لعصبية ما، لغوية كانت أو إثنية أو جغرافية، وإنما هي تصور لإبراز التنوع الثقافي للمغرب،

1 ينظر: المودني عبد اللطيف، المدرسة المغربية ومسارات التربية على القيم. ضمن: دفاتر التربية والتكوين، منشورات المجلس الأعلى للتعليم، العدد 5 (المدرسة المغربية والتربية على القيم في مجتمع قيد التحول)، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، شتنبر 2011، ص 12.

وغناه الحضاري، وانسجامه المجتمعي، وامتداده الجغرافي والتاريخي، في إطار التكامل والوحدة الوطنية. كما تنص على ذلك مختلف النصوص المرجعية للتربية والتكوين بالمغرب.

خاتمة:

انطلاقاً مما تقدم، يظهر جلياً أن الإجابة عن سؤال القيم في المدرسة المغربية، بين مراعاة الخصوصيات الثقافية المغربية والتحديات المتسارعة التي يشهدها العالم اليوم، يقتضي اعتماد مقارنة شمولية تقوم على الانطلاق من الأطر النظرية والمفاهيمية المؤطرة لموضوع التربية على القيم، ثم رصد المظاهر والتجليات السوسيوثقافية لمنظومة القيم، مع تحليل الأطر المرجعية للمنظومة التربوية، وربطها بواقع الممارسة، بهدف بناء خلاصات كافية بملامسة جوانب الإشكالية التي تطرحها هذه المقالة.

وارتباطاً بمجال الأطلس الكبير الذي اختزنه نموذجاً للدراسة، لاحظنا أن الهوية الثقافية لهذا الفضاء، تقوم على قيم أصيلة تعكس خصوصية الأطلس الكبير القائمة على إدارة الندرة وتدبير الأزمت، وهي تتجسد في مظاهر وطقوس اجتماعية مارسها سكان الجبل، وحافظوا عليها عبر التاريخ. واعتباراً للخاصية الدينامية للهوية الثقافية، فقد عرفت منظومة القيم بالمجتمع الأطلسي تحولات واضحة أثرت على أسلوب العيش، ومست جوانب مهمة من الحياة اليومية لأفراده. فإذا كانت النواة الصلبة للخصوصية الثقافية الأمازيغية قد حافظت على قيمها المركزية التاريخية، المتمثلة في التضامن والصبر والقناعة، للتكيف الذكي مع الندرة وإكراهات المجال الجبلي، فإن زحف سياقات التحديث خلخل بنية القيم، ودفع بتمثيلات الناشئة نحو تبني قيم فردانية ونفعية جديدة لا تتسجم أحياناً مع موروث الأجداد.

وعلى مستوى المنظومة التربوية، كشف تتبع حضور القيم في المرجعيات التربوية المغربية، وفحص مضامين نماذج من الكتب المدرسية بالسلك الثانوي الإعدادي، ذات الصلة بالتربية على القيم، ولا سيما مقررات مادة اللغة العربية، عن مفارقة واضحة بين الخطاب التربوي النظري وواقع الممارسة الفعلية بالمدرسة المغربية؛ فبينما تقر المرجعيات الرسمية للمنظومة التربوية، بضرورة التوفيق بين الأصالة والحداثة وتثمين الروافد الثقافية الجهوية، يعاني التنزيل الإجرائي للمضامين من نزعة "مركز حضري" واضحة، على حساب المتن الثقافي الشفهي المحلي، ومن ذلك التراث الأمازيغي، والبيئة الجبلية للأطلس الكبير. وهذا الحضور الباهت للثقافة المحلية الأطلسية، وباقي الخصوصيات الوطنية، وغياب مكوناتها في الدعامات الديدكتيكية بالكتب المدرسية، واختزال ثقافة المنطقة في أبعاد فلكلورية واحتفالية سطحية، يسهم في تكريس نوع من "الاغتراب القيمي والتربوي" لدى المتعلم، ويقوت على المدرسة فرصة توطئ المبادئ الوطنية والكونية انطلاقاً من خلفية الطفل السيكولوجية الحية. الأمر الذي يجعل التربية على القيم في المدرسة المغربية محدودة الأثر في سلوك المتعلم. وهو ما يفسر تنامي الظواهر المخلة بالقيم في المدرسة وفي محيطها من قبيل الغش والعنف والتحرش، وتخريب الملك العام.

إن هذه الخلاصات تؤكد صحة الفرضيات التي انطلق منها البحث، ذلك أن المدرسة المغربية لا تزال تشتغل بمعزل عن دينامية محيطها الثقافي، ولا تزال تراكم كثيراً من العجز في أداء مهمتها في مجال التربية على القيم. ورغم ما حققته من مكتسبات في هذا المجال، فهي مطالبة ببذل مزيد من الجهد لردم الهوة القائمة بين الخطاب النظري المؤطر لتصور بناء القيم في أبعادها المحلية والوطنية والعالمية، وبين التنزيل الفعلي لهذا التصور.

غير أن المدرسة لا تقوى وحدها على النهوض بالتنشئة الاجتماعية، والحفاظ على التراث المحلي وترسيخ الهوية الثقافية الوطنية المتنوعة، مع الانفتاح على القيم الإنسانية العالمية، والتواصل الإيجابي مع الثقافات الأخرى. لذلك لا بد من تضافر جهود باقي المؤسسات الاجتماعية ذات الصلة بالتربية والثقافة والتنمية والتأطير، وعلى رأسها الأسرة والجمعيات والأحزاب السياسية، فضلاً عن مؤسسات الدولة الرسمية القطاعية والمنتخبة.

المصادر والمراجع:

- الجابري محمد عابد:
- العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2009.
- العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2001.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي (سلسلة الثقافة القومية، عدد 25)، بيروت، ط 2، 1999.
- جيروم بندي وآخرون، القيم إلى أين؟. منشورات اليونسكو، ترجمة: زهيدة درويش جبور وجان جبور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2005.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، د.ت.
- الدواوي عبد الرزاق، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات: حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط 1، 2013.
- وحيه ثابت العاني، القيم التربوية وتصنيفاتها المعاصرة، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2014.
- وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الرباط، المملكة المغربية، 2000.
- المجلس الأعلى للتعليم، دفاتر التربية والتكوين، العدد 5 (المدرسة المغربية والتربية على القيم في مجتمع قيد التحول)، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، شتنبر 2011.
- المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي:
- التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي، يناير 2017.
- من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء (رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030).
- حالة منظومة التربية والتكوين وآفاقها، 2008.
- مجلس النواب المغربي، الدراسة الميدانية الوطنية حول القيم وتفعيلها المؤسسي: تغيرات وانتظارات لدى المغاربة. دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، دجنبر 2022.
- منصف عبد الحق، الحداثة الأنوارية في التربية، عالم التربية، د. ت.
- ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مراجعة الخطة الشاملة للثقافة العربية وتحدياتها، 2021.
- العوا عادل، العمدة في الفلسفة، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط 1، 1986.
- القريشي علي، التربية بين الخصوصية والعالمية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2017.
- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.
- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين: كتاب رياضة النفس، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 2005.
- غي روشيه، مقدمة في علم الاجتماع العام: الفعل الاجتماعي، ترجمة: مصطفى دملج، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2002.